أندريه جيد



أندريه جيد

ايزابيلا

ترجمة: د. صبري فهمي

أندريه جيد

André Gide

قد لا نكون مبالغين إذا قلنا أن أندريه جيد من أعظم الأدباء الفرنسيين الذين برزوا وعرفوا في أنحاء العالم في القرن العشرين على الرغم من أنه من مواليد القرن التاسع عشر ـــ إذ ولد في سنة ١٨٦٩ ـــ لا يمثل روح ذلك العصر بل إنه كان أقرب إلى منتصف القرن العشرين بل ربما كان أقرب إلى أدباء المستقبل .

ولد أندريه بول جيوم جيد من أسرة ـــ من أسر الأقلية البروتستانتية في فرنسا ـــ واسعة الثراء أخرجت بعض الرجال الممتازين في الحياة الفرنسية فعمّه شارل جيد كان أستاذاً للإقتصاد معروفاً بعلمه وآرائه السديدة . ولكن هذه الأسرة كانت

محافظة .. شأن الأقليات ـــ شديدة التمسك بالمثل الأخلاقية القديمة ، فأمدته هذه النشأة بصفتين أولاهما أنه لم يكن بحاجة إلى السعي في الرزق وأمكنه أن ينمي موهبته الأدبية على مهل ويجد الوقت للعناية والتعميق في مؤلفاته فكان ذلك الأسلوب الصافي الذي عرف به وتميزت به مؤلفاته. والصفة الثانية أن شعوره بأنه من الأقلية ورؤيته لشدة محافظة أسرته أوجدا فيه روح ثورة عارمة فثار على ذلك التقيد والتشدد وترك نفسه على سجيتها فكان ذلك الجموح بل الشذوذ الذي عرف به وأبى إلا أن يكون صادقاً ، فصرح به وأعلنه في أدبه وقد أخذ كثيرون عليه هذه الحرية والانطلاق إلا أنه صار معبود الشباب الوثاب الذي يندفع لكل جديد

وقد ظهرت هذه النزعة بنوع خاص في مؤلفاته الأولى مثل كراسات أندريه فالتر Ca'liers d'André (حوالي سنة ١٨٩٣) وفي «الباهتات» Paludes (حوالي سنة ١٨٩٤) وفي «الشاذ» L'immoraliste كما ظهرت آثار هذه النزعة أو إشارات إليها في كتب وضعها من بعد مثل «الأطعمة الأرضية»[1] Nourrituses Tisseirés «وإذا كانت البذرة لا تموت» Si le grein ne meurent و «سياحة أوريان» Voyage d'urien ولكنها لم تظهر في قصص أخرى مثل

١ ـــ ترجمة تحت إسم «قوت الأرض والقوت الجديد» «الناشر»

«السمفونية الريفية» Le Symphonie Pastorab ومثل «إيزابيلا» Isabelle (سنة ١٩١٩) من كتبه العظيمة .

ومن كتبه العظيمة أيضاً التي تمتاز بأناقة أسلوبه قصته «المزورون» (١٩٢٥) ورحلة إلى تشاد (١٩٢٨) وسياحاته في الكونجو (١٩٢٧) فضلاً عن يومياته Journal (١٩٣٩) .

وقد كان جيد مولعاً بالآداب العالمية ونقل قصة جتنجالي لتاجور الهندي كما نقل كلا من أنطنيوس وكليوبتره وهاملت لشكسبير ، على أنه طبع هذه الترجمات بطابعه وأسلوبه .

ومن أهم أعماله الأدبية وخدمته للأدباء إنشاؤه المجلة الجديدة الفرنسية في سنة ١٩٠٠ وتعد من خيرة المجلات الأدبية .

وقد توفي أندريه جيد في سنة ١٩٥١ بعد أن خلف في الأدب تراثاً لا تمحوه الأيام[1] .

حسن محمود

---

(١) نال أندريه جيد جائزة نوبل في سنة ١٩٤٦ ومنح دكتوراة فخرية من جامعة أكسفورد في سنة ١٩٤٧ .

وترجم الدكتور طه حسين مسرحيته «أوديب وتيسيوس» سنة ١٩٤٦ الى اللغة العربية .

مضى بنا جيرار لاكاز ، صاحبنا الذي تلاقينا عنده أنا وفرنسيس جام في أغسطس سنة ـــ ١٨٩ إلى قصر «الكارفوش» لمشاهدته . لم يكن باقياً من هذا القصر إلا أطلال بالية لا تلبث أن تندرس ، وغيضة واسعة الأرجاء مهملة . كان أريج الصيف يضرب في أنحائها ويترع ، ولم تكن ترى شيئاً مما كان يحمي الدخول إلى هذا القصر ؛ فالحفيرة التي تكتنفه قد ردمت إلى نصفها والسياج الذي كان يحيط به مفقود ، أما الباب الحديدي فإنه ما كاد أحدنا يضربه بكتفه حتى خرَّ منحرفاً إلى جانب . وكذلك اندرس كل أثر لمسلك أو مجازة على الأرض الخضراء ، حيث جاوزت الخضرة حدها المرسوم وكانت بعض الأبقار طليقة ترعى الكلأ الكثيف الذي كان يفيض ويسترسل كأن به مساً ، بينما لجأت أبقار أخرى إلى جوف الآجام المنبعجة

تنشد مكاناً رطباً ، وقلما كانت العين تقع ، في وسط هذا الفيض الوحشي ، على زهرة نادرة أو شجيرة غريبة من نتاج زراعات قديمة عاشت جاهدة صابرة واستطاعت أن تصمد لهذه الأنواع الشائعة من النبات التي تحاول أن تكتم أنفاسها .

كنا نتبع جيرار دون أن ننبث بحرف، فقد كنا مأخوذين بجمال المكان وروعة الصيف، متأثرين بكل ما في هذا الفيض من هجران وأسى. ولما بلغنا سلم القصر وجدنا درجاته الأولى مغمورة تحت الكلأ، بينما كانت درجاته العليا محطمة انفصل بعضها عن البعض الآخر. على أننا رأينا أنفسنا أمام حجرة الإستقبال وقد امتنعت علينا أبوابها وفشلت كل محاولة لدفعها . فتسللنا إلى القصر من منفذ في القبو كما يتسلل اللصوص . وكان هناك سلم يرقى إلى المطابخ ، ولم نجد باباً من الأبواب الداخلية مغلقاً . وتقدمنا من حجرة إلى أخرى في حيطة وحذر لأن الأرض كانت في بعض المواقع تنوء وتبدو كأنها تنوي أن تميد بنا . كنا نسير خافتي الخطو ، لا لأن أحداً كان يمكنه أن يسمعنا ولكن لأن صدى مثولنا في هذا البيت الساكن الخاوي كان يدوي في غير ورع ويكاد أن يروعنا . وكانت نافذات الدور الأرضي ناقصة الألواح ، ورأينا في شبه الظلام المخيم على حجرة الطعام شجيرة من

البينيونا قد أرسلت خلال شغار مصاريع النافذة ، شعاباً عظيمة بيضاء مسترخية .

كان جيرار قد فارقنا ، وبدا لنا أنه ربما كان يؤثر أن يشاهد وحده ، مرة أخرى ، هذه الديار التي عرف ساكنيها فواصلنا زيارتنا وحدنا . ما من شك في أنه قد تقدمنا إلى الطابق الأول بعد أن اخترق هذه الحجرات الكئيبة الجرداء .

ورأيت في إحدى الحجرات غصناً من البقس متدلياً على الجدار ، يربطه بشبه إبزيم شريط قد استحال لونه ، وبدا لي أنه يترنح في طرف رباطه ففكرت أن جيرار قد قطع شعبة منه . وهو يمر من هذا المكان من أمد وجيز .

والتقينا به في الطابق الثاني على مقربة من نافذة أحد الممرات . كانت هذه النافذة قد تعرَّت من زجاجها وأوصل إلى داخلها حبل تدلى من الخارج . كان هذا الحبل لجرس هممت بجذبه في خفة حين شعرت بذراعي وقد قبض عليها جيرار ، وإذا بحركة يده بدلا من أن توقف يدي زادتها بسطاً ؛ وفجأة دوى صوت ناقوس أجش ، قريب جداً منا ، موحش جداً بحيث إنتفضنا جميعاً في ألم ؛ ثم لما بدا أن السكون قد عاد فشمل المكان ، دوت دقتان صافيتان متعاقبتان سرعان ما تباعد صداهما . والتفتُّ إلى جيرار فرأيت شفتيه ترتجفان ... قال :

ـــ هيا بنا ، إني في حاجة إلى استنشاق هواء غير هذا الهواء .

وما إن خرجنا حتى اعتذر عن مصاحبتنا قائلاً إنه يريد أن يستعلم عن أخبار بعض الناس بالضاحية . فلما أدركنا من لهجته أننا لو تبعناه كنا من المتطفلين ، عدت أنا وجام وحدنا إلى الر ... حيث لحق بنا جيرار في المساء .

وما لبث جام أن خاطبه قائلاً :

ـــ يا صاحبي العزيز ، إعلم أنني قد قررت ألا أقص أية قصة ما لم ترو لنا تلك التي نراها تفعم قلبك .

هذا وقد كانت قصص جام متاع سهراتنا .

فقال جيرار :

ـــ إنه ليسرني حقاً أن أقص عليكم تلك القصة التي كانت هذه الدار ، التي زرتماها من قليل ، مسرحاً لها . على أنه لم يتأت لي إلا الكشف عن بعض أطرافها ثم تخيل بعضها الآخر ، لذا أخشى ألا يتيسر لي إلا أن ألتزم التسلسل في سرد حوادثها ما لم أجرد كل حادث من هذه الفتنة التي تصاحب الألغاز ، والتي كان حب الإطلاع عندي فيما مضى ، يضفيها على كل حادث ...

فقال جام :

ـــ لا تلتزم التسلسل إن شئت .

وقلت :

ـــ لِمَ التزام سرد الحوادث بتسلسلها الزمني ؟ لِمَ لاتعرضها كما تكشفت لك ؟

فقال جبران :

ـــ تسمحان لي إذن أن أتكلم كثيراً عن نفسي .

فقال جام :

ـــ وهل منا من يفعل غير ذلك ؟ .

وإليك قصة جبران .

— ١ —

أكاد لا أدرك اليوم قلة الصبر التي كانت وقتئذ تدفعني نحو الحياة دفعاً . ففي الخامسة والعشرين من العمر كنت لا أكاد أعرف من أمر الحياة شيئاً سوى عن الكتب ؛ ولعلني كنت لذلك أحسبني روائياً ، إذ كنت لا أزال أجهل كيف تمكر بنا الحوادث فتحجب عنا جانبها الذي قد يزيدنا اهتماماً بها ، ثم كم هي تعرض صعبة المنال لمن لا يعرف السبيل إليها ..

كنت أعد وقتئذ ، للدكتوراه ، رسالة عن «تاريخ عظات بوسويه» لا لأنني كنت مدفوعاً بخاصة إلى البلاغة الخطابية ، وإنما تخيرت هذا الموضوع إكراماً لأستاذي الشيخ ألبير دينوس ، فقد كان مؤلفه القيم عن «حياة بوسويه» على وشك الصدور . وما أن علم السيد دينوس بموضوع دراستي حتى عرض علي تيسير الوسائل إليه . كان له صديق قديم يدعى بنيامين فلوش ،

وكان هذا الصديق عضواً في أكاديمية النقوش والاداب ، لديه وثائق متنوعة أستطيع الإفادة منها ولا سيما أن بينها توراة فيها حواش كتبها بوسويه بخطه . وكان السيد فلوش قد اعتزل الحياة منذ خمسة عشر عاماً على التقريب ، واعتكف في قصر الكارفورش الذي اعتاد أهل الناحية تسميته بالكارفور . وهذا القصر ، الذي يقع في ضواحي بون ليفيك ، هو أحد أملاك السيد فلوش . وقال لي استاذي إن صاحبه لا يفارق قصره بتاتاً وأنه يسره أن يتقبلني فيه وأن يضع تحت تصرفي أوراقه ومكتبته وعلمه الغزير .

وتبودلت المكاتبات بين السيد دينوس والسيد فلوش ، وظهر أن الوثائق المذكورة كانت أكثر مما جعلني أستاذي في البدء أرتجي ، وإذا بي أرى الزيارة البسيطة تتحول إلى إقامة طويلة عرضها علي السيد فلوش في تلطف بناء على توصية السيد دينوس .

ومع أنه لم يكن للسيد فلوش وزوجه ولد فإنهما كانا لا يعيشان في القصر وحدهما . ومن بعض كلمات فاه بها السيد دينوس ، غير عامد ، فاستولى عليها خيالي ، أملت في أن أجد هنالك جماعة لطيفة المعشر شعرت في الحال بأنها تجتذبني إليها

أكثر مما تجتذبني وثائق العصر الجليل بما تراكم عليها من غبار ؛ وإذا بي ورسالتي لم تعد إلا نعلة ، وتخيلتني أدخل القصر لا كطالب علم وإنما أدخله مغامراً أو فتى مفسداً ، وشرعت أحف القصر بالحوادث والمغامرات . الكارفورش ! كنت أردد هذا الإسم الغريب الخفي ، وناجيت نفسي : هنا يتردد هرقل ... هذا وأنا أدرى بما ينتظره في سبيل الفضيلة ، ولكن السبيل الآخر ؟ .. السبيل الآخر ...

. وجمعت ، في أواسط سبتمبر . خير ما عندي من ثياب قليلة ، وجددت مجموعة أربطة الرقبة ، وارتحلت .

كان الليل قد أسدل حجبه حين وصلت إلى محطة بروى ــ بلانجي ، وهي محطة تقع بين بون ليفيك ولزيو ، وكنت الراكب الوحيد الذي نزل من القطار في هذه المحطة ، وأقبل للقائي قروي يرتدي ثياب الخدم فتناول حقيبتي واقتادني نحو عربة تقف إلى الجانب الآخر من المحطة . وكبح مشهد العربة وجوادها جموح خيالي ، فإنه من العسير عليكما أن تتصورا شيئاً أشد منها قبحاً ، وانصرف الحوذي ليحضر الحقيبة التي شحنتها ، وناءت لوالب العربة بثقل الحقيبة ، وتضوعت من باطن العربة رائحة خانقة أشبه بما يتضوع من قن الدجاج ... وأردت أن أنزل زجاج

بابها فإذا بمقبضها من الجلد ينفصل ويبقى في يدي . كانت السماء قد أمطرت في ثنايا النهار ، وكان الطريق يرق حيناً ويهبط حيناً آخر ، وعند أول مرتقى انفصلت قطعة من عدة الجواد ، فأخرج الحوذي من تحت مقعده طرفاً من حبل وتهيأ لإصلاح الجر . وكنت قد نزلت من العربة وعرضت عليه أن أحمل المصباح الذي أشعله ، فأتيح لي أن أرى ثياب الرجل وقد تعدد فيها الرتق .

ـــ قلت : إن الجلد قديم بعض الشيء .

فنظر إليّ كأنما رميته بسبة ، وقال في صوت يكاد يكون محقداً .

ـــ ماذا ! حسبك أن قد تيسرٌ لنا الحضور لتقلك .

فسألته ، في أعذب صوت أوتيته :

ـــ أبعيدة المسافة بيننا وبين القصر ؟

فلم يجبني (رأساً) ، بل قال :

ـــ الحق إن العربة لا تقطع هذه المسافة كل يوم ؟

وأطرق لحظة ثم أضاف :

ـــ لقد انقضى ما يقرب من ستة أشهر دون أن تخرج العربة من محطها .

فحاولت في يأس حمله على الكلام وقلت :

ـــ أو لا يتنزه سادتك كثيراً ؟

ـــ قال . أو تحسب أنه ليس لدينا سوى هذا نفعله ؟

وكان الخلل قد أصلح ، فدعاني في إشارة إلى الصعود ، فصعدت وانطلقت بنا العربة .

كان الجواد يمضي في الطريق الصاعدة جاهداً ، ويخبّ في المنحدرة ، ويسرد في الأرض المنبسطة سرداً مروعاً ؛ وأحياناً ما كان يقف بغتة دون أن يشعرنا بما ينوي . وفكرت : لو استمر سيرنا على هذا النسق لوصلت إلى الكارفور وقد انتهى أصحاب الدار من تناول طعامهم ، بل (ووقف الجواد مرة أخرى) وقد آووا إلى فراشهم وناموا ... وكان الجوع يحز في أحشائي ؛ وبدأ مزاجي يتطور إلى الفساد ، فأدرت نظري إلى البلدة أشاهد معالمها . كانت العربة ، دون أن أتنبّه إلى ما فعلتْ قد عدلت بنا عن الطريق الرئيسية وانعطفت في طريق ضيقة لم تلق من العناية ما لقيته الأولى . وكانت مصابيح العربة لا تضيء ، عن يمينها أو يسارها ، إلا سياجاً ممتداً ، عالياً كثيفاً ، يحيط بنا من كل جانب وكأنه يسدّ علينا الطريق ولا يفسحها إلا حين نمر ، ثم ما أن نمضي حتى يلتئم في أثرنا .

ووقفت العربة مرة أخرى في أسفل مرتقى وعر المصعد ، فأقبل الحوذي إلى الباب وفتحه قائلاً :

ـــ هل يتفضل سيدي بالنزول ؟ إن المرتقى عسير بعض الشيء على الجواد .

وارتقى الطريق وهو قابض على زمام جواده ، فلما بلغنا منتصف الطريق التفت إلي ، وكنت أسير خلفه ، وقال في لهجة زال ما فيها من جفاء :

ـــ سوف نصل بعد قليل ، هذه هي الغيضة .

ورأيت أمامنا أجمة تعترض السماء الحاسرة ، وتبينتها فإذا هي أشجار من الزان تكتنف مجازة ولجناها بعد برهة ثم اتصلت المجازة بطريقنا التي غادرناها في المفترق . ودعاني الحوذي إلى الصعود ، ووصلت بنا العربة بعد قليل إلى الباب الحديدي ودخلنا الحديقة .

كان الظلام شديداً حالكاً بحيث تعذر عليّ أن أرى شيئاً من واجهة القصر . وأقلتني العربة إلى سلم به ثلاث درجات ارتقيتها وبهر عينيّ ضوء مشعل سلطته عليّ امرأة من العسير تحديد سنها إلا أنها قليلة الظرف ، بدينة ، حقيرة الزي . وحيتني

في شيء من الجفاء ، فانحنيت أمامها ، وقلت في شيء من التردد :

ـــ مدام فلوش ، بلا ريب ؟

قالت : بل الآنسة فردور ليس غير . إن السيد فلوش وزوجه نائمان وهما يلتمسان منك المعذرة لتخلفهما عن لقائك ، إن الناس هنا يتناولون العشاء في ساعة متقدمة .

ـــ قلت : وأنت يا آنستي ؟ هأنذا اضطرتك إلى السهر إلى ساعة متأخرة .

فقالت ـــ دون أن تلتفت إليّ : إنني معتادة السهر .

وكانت قد تقدمتني إلى المدخل فأضافت :

ـــ لعله يسرُّك أن تتناول شيئاً ؟

ـــ حقاً ، إنني لم أتناول عشائي بعد .

فأدخلتني إلى حجرة طعام فسيحة أعدَّ فيها عشاء طيب ثم قالت :

ـــ في هذه الساعة قد خبا الكور ، وفي الريف يجب أن يقنع الإنسان بما يجد .

فقلت : وأنا أجلس أمام طبق فيه لحم بارد :

ـــ ولكن هذا كله يبدو طيباً جداً .

فجلست إلى جانب على مقعد قريب من الباب ؛ وظلت ، طوال تناولي الطعام ، خافضة الطرف ، شابكة يديها على ركبتيها ، حريصة على أن تبدو في مظهر التابعة . وكنت ، كلما انقطع حديثنا الفاتر ، أعتذر إليها عن أنني أضطرها إلى ملازمتي ؛ ولكنها أفهمتني أنها تنتظر أن أنتهي من الطعام لترفع الصحاف ، ثم أضافت :

ـــ وحجرتك ، كيف تجدها بنفسك ؟

فضاعفت من حجم لقمتي وأسرعت بازدراد طعامي ازدراداً ؛ وعلى حين فجأة فتح باب المدخل ودخل قسٌ وخط الشيب رأسه ، صارم الوجه ولكنه لطيف . فأقبل باسطاً يده وقال :

ـــ لم أرغب في أن أرجيء إلى غد سروري بتنحية ضيفنا ولم أشخص إليك قبل الآن لأنني أعرف أنك كنت والآنسة أولامب فردور تتبادلان الحديث ...

قال ذلك في شبه ابتسامة ماكرة وجهها إلى الآنسة ، في حين زمّت هذه شفتيها وأبدت وجهاً جامداً كأنه من خشب . ثم ، لما هممت بترك المائدة ، أضاف :

ـــ أما وقد انتهيت من تناول طعامك ، فلنترك الآنسة

أولامب تقوم بترتيب ما عليها ترتيبه ، ولعلها ترى أنه من الملائم أن تكل إليّ أمر مرافقتك إلى حجرة فراشك وأن تنزل في أعمالها عند هذا .

وانحنى في شيء من الاحترام أمام الآنسة فردور ، فحيته تحية قصيرة ، وقالت :

ـــ إنني أنزل ... يا سيدي الأب على رأيك . إنك لتعرف ذلك . إنني أنزل على رأيك دائماً ...

ثم ارتدّت فجأة ، وأضافت .

ـــ كدت تنسيني أن أسأل السيد لاكاز عما يتناول في فطوره .

ـــ إنني أتناول ما يحلو لك يا آنسة . ماذا تتناولون عادة هنا ؟

ـــ كل شيء . إننا نحضر للسيدات شاياً ، وللسيد فلوش قهوة ، وللسيد الأب حساء . و«رقهوت» Racahout للسيد كازمير .

ـــ وأنت يا آنسة ، ألا تتناولين شيئاً ؟

ـــ أنا ، قهوة ولبناً فقط .

ـــ لو سمحت لتناولت قهوة ولبناً معك .

فقال الأب وهو يمسك ذراعي :

— إيه ! إيه ! يا آنسة فردور ، حذار ؛ فيخيل إلي أن السيد لاكاز يغازلك .

فهزت كتفها ثم حيتني تحية خاطفة بينما كان الأب يجذبني لأتبعه .

كانت حجرتي في الدور الأول تقع في طرف أحد الدهاليز .

وقال الأب ، وهو يفتح باب حجرة واسعة تضيئها نار تشتعل في موقد كبير :

— غفرانك ربي ! لقد أوقدوا لك النار ! ... لعلك كنت في غنى عنها ، ولكن الليالي في هذا البلد رطبة حقاً ، والصيف في هذا العام مطير على نحو ليس بالمألوف .

وكان قد دنا من النار وبسط راحتيه العريضتين إليها على حين أدار وجهه عنها كما يدير المتعبد أنظاره عن سبب من أسباب الإغراء والفتنة . وبدا لي أنه أكثر استعداداً للحديث منه لأنه لم يدعني أذهب إلى فراشي . وابتدرني قائلاً ، حين أبصر حقيبتي :

— أرى جراسيان قد أحضر لك حاجاتك .

— فسألته : جراسيان ! أهو الحوذي الذي أقلني ؟

— نعم ، وهو بستاني القصر أيضاً . لأن عمله كحوذي قلما يشغل وقته .

ـــ لقد ذكر لي فعلاً أن العربة قلما تخرج.
ـــ ما من مرة خرجت فيها إلا عُدَّ ذلك حدثاً تاريخياً.
هذا، ومنذ أمد بعيد والسيد دي سان أوريول لا يملك جياداً. وفي المناسبات الكبرى، كمناسبة الليلة، نستعير للعربة جواداً من المزرعة.

فرددت في دهشة:
ـــ السيد دي سان أوريول؟
ـــ نعم، إنك حضرت إلى هنا للقاء السيد فلوش، ولكن الكارفورش ليست له وإنما هي لأخي زوجته؛ وغداً سوف تتشرف بمعرفة السيد دي سان أوريول وزوجه.
ـــ ومن يكون السيد كازمير الذي لا أعرف عنه إلاّ أنه يتناول الرقهوات في الصباح؟
ـــ إنه حفيدهما وتلميذي؛ ولي ثلاثة أعوام وأنا، بإذنه تعالى، أقوم بتعليمه.
قال ذلك وهو يغمض جفنيه في شبه استغفار خاشع كأنه يتحدث عن أمير من دم كريم، وسألته:
ـــ أليس أبواه هنا؟
قال وهو يزم شفتيه زماً شديداً:

ـــ إنهما على سفر.

ثم أضاف في الحال:

ـــ أنا على علم يا سيدي بموضوع هذه الدراسات الجليلة الورعة التي حملتك على المجيء إلى هنا.

فقاطعته ضاحكاً:

ـــ لا تسرفنّ في الظن بورعها. إنما اهتمامي بها اهتمام مؤرخ فحسب.

فأشاح بيده، كأنه يبعد عن خاطره ما من شأنه أن يكدره، وقال:

إن للتاريخ أيضاً حقوقه، ولسوف تلقى في السيد فلوش ألطف مرشد وأصدق عون...

ـــ هذا ما أكده لي أستاذي دينوس.

ـــ آه! أنت تلميذ ألبير دنيوس!

وزمّ شفتيه مرة أخرى، فسألته دون تبصر:

ـــ أو قد حضرت عليه؟

فأجاب في جفاء:

ـــ إن ما أعرفه عنه قد ألزمني الحيطة... إنه مغامر من مغامري الفكر.

من كان في سنك أغراه في يسر كل ما خرج عن المألوف.

ولما رآني لا أجيبه، استأنف قائلاً:

ـــ لقد كان لآرائه بعض الأثر في الشباب؛ ولكنه بلغني أن الشباب بدأ يخرج عليها الآن.

كنت أشعر بأن رغبتي في الجدل أقل منها في النوم، فلما رأى أنه لن يظفر مني بجواب عاد يقول:

ـــ سوف يكون السيد فلوش أصلح لك نصحاً.

وأضاف، لما رأى تثاؤبي الذي لم أحاول إخفاءه:

ـــ إن الليل قد تقدم؛ إن شئت عدنا إلى هذا الحديث غداً فيما قد نجد من فراغ، فلا بد أنك بعد هذا السفر متعب.

ـــ حقاً يا سيدي الأب، إنني أكاد أقع من شدة التعب.

وما أن انصرف عني حتى انتزعت الحطب من الموقد وفتحت النافذة على سعتها، ودفعت مصاريعها الخشبية فهبَّ نفح شديد خفي أمال لهب شمعتي، فأطفأتها حتى أتأمل الليل وأتروى.

كانت حجرتي تطل على الغيضة ولكن لا من أمام كحجرات الممر الكبير التي تغم بلا ريب، بمنظر يمتد فيه البصر

إلى أبعد مما يتاح لي في حجرتي. وأوقف بصري سياج من الأشجار لا يظهر من فوقه إلا طرف ضئيل من السماء، تألق فيه الهلال روحاً قليلا ثم غشيه الغمام. وكانت السماء قد أمطرت والأغصان نديّة لا تكف عن القطر.

وفكرت وأنا أغلق النافذة: إن هذا الجو يثنيك عن الخروج. وكانت هذه اللحظة من التأمل قد اختلجت لها نفسي أكثر مما اختلج لها بدني، فأعدت الحطب إلى الموقد وأزكيت النار فيه، وما كان أشد اغتباطي لما أن وجدت في فراشي جرّة ماء ساخن، كانت الآنسة فردوز ـ في حسن رعايتها بلا ريب ـ قد زجّتها فيه.

وتنبهت بعد حين إلى أنني أغفلت وضع حذائي أمام الباب، فنهضت وخرجت برهة إلى الدهليز، فرأيت الآنسة تمضي إلى الطرف الآخر من الدار. كانت حجرتها فوق حجرتي، دلني على ذلك خطاها الثقيلة التي زلزلت السقف؛ ثم عاد السكون فشمل المكان. وإذ كنت أستغرق في نوم عميق رفعت الدار مرساتها لتجتاز عباب الليل.

— ٢ —

واستيقظت في الصباح مبكراً على أصوات صادرة من المطبخ، وكان أحد أبوابه يفتح من تحت نافذة غرفتي. فلما أن رفعت مصاريعها نعمت بمشهد سماء صافية. وكانت الحديقة، وآثار المطر على أديمها لم تُمحَ بعد تضوي وتتلألأ؛ وكان الجو مائلاً إلى الزرقة، وهممت بإغلاق النافذة حين وقعت عيناي على صبي يخرج من حديقة البقول ويسرع إلى المطبخ. لم يكن من اليسير تحديد سن الصبي فقد كان وجهه يبدو أكبر من جسمه بثلاث أو أربع مرات؛ وكان مشوه البدن، ملتوي القامة، مقوس الساقين يسير منحرفاً ويتقدم خبباً كأن لا مناص له من أن تشتبك قدماه إن سار قُدُماً... ومن الواضح أن هذا الصبي لم يكن إلا كازمير تلميذ الأب.

وكان يطفر إلى جانبه كلب ضخم، يثب حين يثب

ويحتفي به أشد الحفاوة؛ وكان الصبي يدفعه ويحتمي جهد طاقته من فيض حفاوته المخلة بتوازنه غير أنه حين أشرف على المطبخ إذا بالكلب يدفعه ويطرحه أرضاً فتدحرج الصبي في الوحل. وخفت إليه أمرأة بدينة أخذت تزجره وهي تعينه على النهوض، قائلة:

ـــ الله أكبر! كيف تفعل بنفسك هذا الفعل؟ لكم أوصيناك بترك «ترفو» في محط العربة... هلم! أقبل حتى أنظفك.

وجذبت الصبي إلى المطبخ؛ فسمعت حينئذ طرقاً ببابي، ودخلت خادمة تحمل ماء ساخناً. وبعد ربع ساعة دق الجرس مؤذناً بالفطور.

فلما أدخلت إلى حجرة الطعام، تقدم الأب للقائي قائلاً:

ـــ ها هو ذا ضيفنا الظريف.

وكانت مدام فلوش قد نهضت من مقعدها ووقفت لتحيتي؛ على أنها وهي واقفة لم تكن تبدو أكبر مما كانت وهي جالسة. وانحنيت لتحيتها انحناء شديداً فأجابت على تحيتي بحركة سريعة أمالت جسمها حتى خيل إليّ أنها تغطس. ما من شك في أنه قد هبط على هامتها في حين من الأحيان حدث جلل عمل على إغاصة رأسها بين كتفيها ثم ظل الرأس بعد ذلك

غائصاً بل ومنحرفاً دون أمل في أن يسترد يوماً وضعه . ووقف السيد فلوش إلى جانب زوجه باسطاً يده لتحيتي . وبدا لي الشيخان يتشابهان طولا ولباساً وسناً وكأنهما من لحم واحد … ولبثنا ساعة نتبادل عبارات التحية الدارجة ونتكلم في وقت واحد ، ثم ساد صمت جليل ودخلت الآنسة فردور تحمل إناء الشاي .

وقالت مدام فلوش ، بعد برهة ، وهي تدير نصفها الأعلى إلينا لأن رأسها كان لا يدور :

ـــ إن الآنسة أولامب ، صديقتنا ، كانت تريد أن تسألك : هل كان نومك هادئاً ، وهل وجدت السرير مريحاً ؟

فأجبت بأنني نمت أطيب النوم وأن جرة الماء الساخن التي وجدتها في فراشي نفعتني نفعاً محققاً .

وخرجت الآنسة فردور بعد أن حيتني ، فعادت مدام فلوش تسألني :

ـــ ألم تزعجك ، في الصباح ، الأصوات الصادرة من المطبخ ؟

فلما أجبت بالنفي قالت :

ـــ أرجوك أن تذكر شكواك ، إن كان لك ما تشتكي منه ؛ فليس أيسر عندي من إعداد حجرة أخرى لك .

وكان السيد فلوش ، دون أن يفوه بحرف ، يهز رأسه إلى جانب ويبتسم مؤمناً على كل عبارة تنطق بها زوجه .

قلت :

ـــ إنني أرى تماماً أن المنزل فسيح جداً ، ولكنني أؤكد لكم أنه ليس في الإمكان أن أنزل أطيب مما نزلت .

فقال الأب :

ـــ إن السيد فلوش وزوجه يجدان في إكرام ضيفهما ورعايته سروراً عظيماً .

وأحضرت الآنسة أولامب طبقاً به خبز مقدد ، ودفعت أمامها الصبي الأعرج الذي رأيته من ساعة يتدحرج في الوحل ، فقبض الأب على ذراع الصبي قائلاً .

ـــ هلم يا كازمير ! لقد جاوزت سن الطفولة ؛ تقدم ، حيِّ السيد لاكاز كما يحيي الرجال ، مدّ إليه يدك ... أنظر أمامك ! ...

ثم التفت إليّ ، وكأنه يعتذر عنه ، وقال .

ـــ إنه لم يألف بعد عادات المجتمع وآدابه ...

كان استحياء الطفل يضايقني ، فوجهت خطابي إلى مدام فلوش متناسياً ما ذكره لي الأب بالأمس :

ـــ أهو حفيدكم ؟ .

فأجابت : إنه حفيد أختي ، وسترى عما قليل جدّيه ، أختي وزوجها .

وقالت الآنسة فردور مفصحة :

ـــ كان لا يبغي العودة إلى المنزل لأنه لطّخ ثيابه بالوحل وهو يلعب مع ترنو .

فالتفت إلى الصبي وقلت ملاطفاً :

ـــ يا له من لعب طريف ! لقد رأيتك من نافذتي والكلب يطرحك أرضاً . هل أصابك بسوء ؟ .

فأوضح الأب بدوره :

ـــ ينبغي أن نذكر للسيد لاكاز أن التوازن أقل ما يحسنه الصبي .

ففكرت : حقاً ! إنني أستبين ذلك بنفسي وليس في حاجة إلى الإشارة إليه . وفجأة غدا هذا الأب الضخم الجثة ، الذي لا تستقر عينه على لون ثقيل الظل بغيضاً . ولم يجب الصبي على سؤالي ولكن علت وجهه حمرة الخجل ، فأسفت على عبارتي لعله أن يكون قد لمس فيها تعريضاً بعاهته . وكان الأب قد نهض عن المائدة بعد تناول حسائه ، وأخذ يضرب في الحجرة جيئة وذهاباً . وكان من دأبه إذا ما سكت أن يزمّ شفتيه زماً وثيقاً حتى لتبدو شفته العليا بارزة مشرئبة كشفة من تقدمت

بهم السن فقضت أفواههم . ثم وقف خلف الصبي ، وبينما كان هذا يقرع طاسه قال :

ـــ هلم ! هلم يافتى ، إن ابن زهير في انتظارنا .

ونهض الصبي ثم خرج كلاهما .

وما أن انتهينا من الفطور حتى دعاني السيد فلوش بإشارة قائلاً :

ـــ هيّا معي إلى الحديقة يا صاحبي الفتي ، تعال حدثني عن باريس المفكرة .

كانت عبارات السيد فلوش إذا ما تنفّس الصبح تكتسي ثوباً نضيراً ؛ ثم ، دون أن ينتظر مني جواباً ، أخذ يسألني عن صديقه جاستون بواسبية وعن غيره من العلماء الذين كان من المحتمل أن أكون قد درست عليهم والذين كان لا يزال يراسلهم بين حين وحين . وسألني عن ميولي ودراساتي . وبديهي أنني لم أحدثه عن طموحاتي الأدبية، ولم أبين له من نفسي إلا ناحية السربوني . ثم أخذ يروي تاريخ الكارفورش التي لم يفارقها منذ حلّ بها من خمسة عشر عاماً على التقريب ؛ وكذلك روى لي تاريخ القصد والغيضة ، وأرجأ إلى ما بعد تاريخ الأسرة التي كانت تقطن

القصر من قبل ، ولكنه قصّ عليّ كيف أستحوذ على وثائق القرن الثامن عشر التي تهمني لرسالتي ... وكان يخطو خطواً سريعاً ، أو على الأصح كان يخبّ إلى جانبي خباً ، ولاحظت أن سرواله كان يهوى من أمام وينثني كالمنفاخ إلى أسفل قدميه في حين كان من خلف مرفوعاً إلى أعلى النعل ، دون أن أدرك بأية وسيلة استطاع أن يرفعه . ولم أعد أعيرو إلا أذناً لاهية إذ أن الفكر استولى عليه خمود وثقل بفعل ما كان ينفثه النبات من حولي في هذا الجو الفاتر . وبينا نحن على هذه الحال نقطع طريقاً اكتنفت جانبيها أشجار من الكستناء وانبسقت فروعها وتلاقت من فوق رؤوسنا كالسقيفة ، أشرفنا على طرف الغيضة ، ووجدنا ، خلف شجرة من العوسج ، مقعداً في حمى من الشمس ؛ فدعاني إلى الجلوس ، وفجأة قال :

ـــ أوقد ذكر لك الأب سانقال ان سلفي به بعض ... ؟

ولم يتم عبارته ولكنه مس جبينه ببنانه .

ولم أجد ما أجيبه به لشدة ما اعتراني من دهشة وذهول ؛ فاستأنف قوله :

ـــ نعم ، سلفي البارون دي سان أوريول ، لعل الأب لم يذكر لك ذلك ، كما لم يذكره لي أنا ؛ ولكنني أعرف أنه يعتقده

كما أعتقده أنا أيضاً ، وعني ؟ ألم يقل لك الأب أن بي بعض ... ؟

ـــ يا سيد فلوش ، كيف بك تظن ؟ ...

فقال ، وهو يربت على يدي في غير كلفة :

ـــ ولكن ، لو صح ذلك يا صاحبي لوجدته أمراً طبيعياً ، ما الحيلة ونحن هنا قد اعتدنا الاعتكاف عن العالم بمعزل عن نشاط الخارج وحركته لا شيء يأتينا بـ... بتغيير ، كيف السبيل إلى الإعراب عن ذلك ؟ نعم وظريف منك أن حضرت للقائنا .

فلما حاولت أن أحرك يدي معترضاً ، أعاد قوله :

ـــ نعم ، ظريف منك . وسأكتب هذا المساء نفسه إلى صديقي العزيز دينوس لأبلغه ذلك . هذا وإنك لو حدثتني بما يجيش في قلبك ويضطرب به فكرك ... فإنني واثق من أنني لن أفهمك ...

ماذا كان في وسعي قوله ؟ فنقبت الرمل بطرف عصاي ؛ وعاد إلى الكلام :

ـــ ألا ترى أننا فقدنا هنا كل اتصال بالعالم ؟ لا ، لا . لا تعترض عبثاً . إن البارون أصم كالقرعة ، ولكنه متأنق يحرص

على إخفاء صممه وهو يؤثر أن يتكلف السمع على أن يضطر محدثه إلى رفع صوته . أما أنا فيخيل إلي أنني ، فيما يتعلق بالآراء الحديثة ، أعادله صمماً . هذا ، وأنا لا أجد ضرراً في ذلك ، بل ولا أحاول فهم شيء من هذه الآراء . لقد إنتهت بي عشرتي المتصلة بماسيون وبوسويه إلى الإيمان بأن المشاكل التي كانت تشغل بال هذين العقلين العظيمين لا تقل روعة وخطورة عن المشاكل التي استهوتني في شبابي . ولا شك عندي في أن هذين العقلين العظيمين كانا لا يفهمان مشاكل شبابي ، كما أنني لا أفهم اليوم المشاكل التي تستهويكم لذا ، إن شئت يا زميل المستقبل ، أوثر أن تحدثني عن دراساتك ما دامت هي نفس دراساتي ، واغتفر لي ألا أسألك عن الموسيقيين والشعراء والخطباء الذين أنت بهم كلف ، أو عن نظام الحكم الذي تراه في نظرك أصلح .

ونظر إلى ساعة مستديرة معلقة في شريط أسود ؛ ثم نهض ، قائلاً :

— فلنعد الآن . إنني لأعتبر يومي ضائعاً ما لم أبدأ عملي في العاشرة .

ومددت له ذراعي فتأبطها . ولما كنت أبطيء السير أحياناً ، من أجله كان يقول :

ـــ أسرع ! أسرع . إن الأفكار أشبه بالأزهار ، ما أقتطف منها صباحاً طالت نضرته .

أما مكتبة الكارفورش فقد كانت مكونة من حجرتين يفصلهما ستار بسيط ؛ إحداهما ، وهي مقر السيد فلوش ، صغيرة ضيقة ترق إليها بثلاث درجات ، وكان يعمل فيها وهو جالس إلى منضدة موضوعة أمام نافذة محجوبة المنظر ، تحجبه شجرة من الدردار أو النشم أرسلت فروعها إلى الخارج تضربه ؛ وكان على المنضدة مصباح ذو خزان علاه غطاء من خزف أخضر ، وتحت المنضدة وسادة ضخمة بها ثغرة مهدت لتأوي القدمين وتقيهما البرد . وكان في إحدى الزوايا موقد صغير ، وفي زاوية أخرى مائدة محملة بكتب اللغة ، وبين الزاويتين خزانة أعدت على شكل مصنف . أما الحجرة الأخرى فقد كانت متسعة ، تحوي عدداً عظيماً من الكتب غطى الجدار وبلغ السقف .

ـــ وقال السيد فلوش : هنا مقرك .

فلما أن صحت معترضاً ، قال :

ـــ لا ، لا . إنني معتاد الجلوس في المقصورة . والحق ، أشعر أنني فيها أقر نفساً ، بل ويخيل إلي أن فكري يستجمع شتاته فيها ويلتئم دونك المنضدة الكبرى ؛ احتلها بلا حرج .

وإن شئت ففي الإمكان إسدال الستار حتى لا يزعج أحدنا الآخر .

فاعترضت قائلاً :

ـــ لا تسدله من أجلي ؛ إن كنت حتى اليوم قد شعرت بحاجتي إلى الإعتزال وأنا أعمل فإنني لا ...

ـــ قال . حسناً ! ستتركه إذن مرفوعاً ؛ وفيما يتصل بي فسروري سيكون عظيماً بأن أشاهدك بطرف .

والحق ، ما رفعت رأسي عن عملي ، في الأيام التالية ، إلا التقت عيني بعينه فإذا به يبسم هازاً رأسه ، أو يحول عينه عني متكلفاً الإنهماك في مطالعته ، متحرجاً من إزعاجي .

وكذلك اهتمَّ تواً بأن يضع تحت تصرفي الكتب والمخطوطات التي تهمني ، وقد كان أكثرها محشوداً في مصنف المقصورة ؛ وكانت من العدد والأهمية بما يفوق كل ما ذكره أستاذي دينوس . وكان يلزمني أسبوع على الأقل ليتسنى لي نقل البيانات القيمة التي قد أعثر عليها في بحثي . أخيراً ، فتح السيد فلوش خزانة صغيرة كانت بجانب المصنف وأخرج منها الكتاب المقدس الشهير الذي كان يملكه بوسويه ، والذي دون فيه « نسر مدينة مو[1] » ، أمام الآيات التي أوحت إليه بموضوع عظاته ،

(١) هكذا كان يسمى بوسويه .

التاريخ الذي ألقيت فيه هذه الخطات ، ودهشت من أن ألبير
دينوس لم يفد من هذه البيانات في رسائله ؛ ولكن السيد فلوش.
أخبرني أنه لم يحصل على هذا الكتاب إلا من زمن قريب .
واستطرد قائلا :

ـــ لقد وضعت رسالة عنه ، وإني لسعيد . لأنني لم
أحط أحداً علماً بها ، فيمكنك أن تستفيد بما فيها من جديد
وأنت تصنع رسالتك .

فقالت :

ـــ سوف أكون مدينة لك ولتلطفك بكل فضل
لرسالتي . أو قد ترضى ، على الأقل ، أن أهديك أياها دليلاً
مني على اعترافي بفضلك ؟

فابتسم في حزن ، وقال :

ـــ من كان مثلي موشكاً على فراق الدنيا ليغتبط بكل ما
يبعث فيه الأمل في بعض الخلود .

ورأيت أنه لا يليق بي أن أزيد على ذلك .

ثم عاود قوله :

والآن تولى المكتبة ، ولا تحسبين لي حساباً إلا أن تكون
راغباً في سؤالي . خذ جميع الأوراق التي تلزمك ... وإلى
اللقاء ! ...

وبينما كان يهبط الدرجات الثلاث ابتسمت إليه ، فحرك يده أمام عينيه قائلاً : إلى اللقاء !

وحملت إلى الحجرة الكبرى الأوراق التي تؤلف بداية عملي . وكنت أستطيع ، دون مغادرة المنضدة التي جلست إليها ، أن أشاهد السيد فلوش وهو يتحرك بجسمه الصغير ، تارة يفتح أدراجاً ثم يغلقها وأخرى يخرج أوراقاً ثم يعيدها ، متكلفاً أشد الإنهماك في العمل . والحق ، ما أحسبه إلا كان مضطرباً جداً ، منزعجاً لوجودي ، لأن أقل حدث يلم بهذه الحياة البالغة النظام كان يزعزعها ويدخل على العقل شيئاً من التبلبل . وأخيراً جلس في مقعده وغاص فيه إلى نصفه ثم قبع لا يتحرك ...

أما أنا فقد تكلفت الإنهماك في العمل ، غير أنه تعذر علي أن أملك زمام فكري ، بل ولم أحاول أن أكلمه ، وأخذ فكري يطوف بي حول الكارفورش طوافك حول برج عليك أن تجد منفذاً إليه . ولم يكن يعنيني إذ ذاك إلا أن أسوق الدليل لنفسي على أنني لبيب فطن وأن أقنعها بذلك . كنت أناجيها بقولي : تدّعين أن صاحبك روائي ! الآن نختبر فطنته ... تقولين أنه يجيد الوصف ؟ لعله كذلك ، ولكن الوصف ليس بالمطلوب الآن ، وإنما المطلوب أن يكشف عن الحقيقة المستترة خلف

مظاهر الأشياء إن كان صاحبك ، في هذه الفترة القصيرة التي قد أتيحت له فيها الإقامة في الكارفورش ، يترك حركة ما تمر ، أو رجفة ما تنقضي ، دون أن يأتيك بدوافعها النفسية والتاريخية ويفسرها لك تفسيراً صحيحاً ، فأنه إذن ليجهلن مهنته .

ورفعت بصري إلى السيد فلوش فرأيت وجهه يعرض لي من جانب وشاهدت أنفاً ضخماً رخواً لا يعرب عن شيء ، وحاجبين شائكين وذقناً أمرد لا يكف عن الحركة كأن صاحبه يلوك مضغة في فمه ... وفكرت : ما من شيء يجعل وجه الإنسان أشد غموضاً قدر هذا النقاب الذي تضفيه عليه طيبة القلب .

وباغتني الجرس الثاني الذي يؤذن بالغداء وأنا أقلب هذه الخواطر في رأسي .

— ٣ —

وجدتني في الغداء والسيد فلوش يقدمني إلى سان أوربول وزوجه دون أي تمهيد كلامي . لقد كان في وسع الأب أن ينبهني إلى ذلك مساء أمس . وأذكر أنني فيما مضى قد تولتني نفس الدهشة لما أن شاهدت في حديقة الحيوان طائر التمام المنبطح المنقار ؛ ولست أدري أيهما كان أغرب وأعجب منظراً . كانا صنوين يتماثلان ويتوافقان أشد التماثل والتوافق ، أشبه في ذلك بالسيد فلوش وزوجه . ولعلهما إن وضعا في أحد متاحف الطبيعة أن يكون مكانهما ، دون تردد ما ، تحت حاجز من زجاج أحدهما قِبَل الآخر ، بين هذه «الأنواع المنقرضة» التي تحتويها متاحف الطبيعة . وأحسست ، أول ما رأيتهما ، بإعجاب غامض كالذي تحسّه عندما يقع نظرنا على تحفة فنية أو آية من آيات الطبيعة ؛ فلقد لبثت ، أول ما نظرتهما ، أرمقهما

في ذهول وعجز عن التفكير ، ولم أستطع أن أحلل إحساسي إلا بعد حين قليل ، شيئاً فشيئاً ..

كان البارون نرسيس دي سان أوريول يرتدي سروالاً قصيراً ، ويحتذي حذاءاً ذي إيزيم شديد البروز ؛ ورباط رقبة من الموسلين ، وكانت جوزة عنقه ، وهي تكاد تعدل الذقن في بروزه ، تطل من ثغرة الياقة وتحاول أن تتوارى خلف وشاح من الحرير الجائش لفّه حول عنقه . أما ذقنه فكنت تراه ، إذا ما حرّك فكه ، يبذل جهداً عجيباً ليتصل بأنفه ، بينما كان الأنف من جهته يسعى إليه . وكانت إحدى عينيه مغلقة في إحكام ؛ أما الأخرى فقد أشرأب إليها طرف الشفة جاذباً في إثره خطوط الوجه ، وكانت هذه العين صافية ، براقة ، تكمن خلف الوجنة . كأنها تقول : حذار ! حذار ! إنني وحدي ، ولكن لا يغيب عن نظري شيء .

أما مدام دي سان أوريول ، زوجه ، فقد كانت تغوص في لجة من الموشّى الزائف ، وكنت ترى يديها الطويلتين المثقلتين بالخواتم الضخمة ترتعدان في جوف كميّها . وأحاط بالوجه كله شيء أشبه بكساء طويل من الحرير الأسود مبطن بأطراف من الموشي ؛ وقد عقدت حول عنقها شريطين من الحرير قد استحال

لونهما إلى بياض بفعل ما تساقط عليهما من مسحوق كانت تذره على وجه لطّخته أبشع التلطيخ .

فلما أنا دخلت ، انتصبت واقفة إلى جانب وألقت برأسها إلى خلف ثم صاحت أو قالت في صوت بالغ الحدة لا نغم فيه :

لقد مضى زمن كان الناس فيه يا أختاه أكثر رعاية لمن كان يدعى سان أوريول ...

على منْ كانت غاضبة ؟ ما من شك في أنها كانت تبغي إشعاري وإشعار أختها بأنني لم أكن هنا عند آل فلوش ، فإنها استأنفت قولها وهي تميل رأسها إلى جانب ، وترفع يمناها وتصر بها إليّ :

ـــ إن البارون ليسره ، يا سيدي ، كما يسرني أن نتقبلك إلى مائدتنا .

ولثمت شفتاي خاتماً في يدها ، ثم نصبت قامتي وأنا خجل من هذا اللثم إذ بدا لي أن موقفي بين آل فلوش وآل سان أوريول ينذر بأن يكون حرجاً عسيراً ؛ غير أن مدام فلوش كانت تبدو كأنها لا تحفل بما قالت أختها ، أما البارون فقد كنت في ريبة من أمره رغم تلطفه إلي ومعسول كلامه . ولم يتمكن أحد ، أثناء إقامتي كلها في الكارفورش ، من أن يقنعه بالكف عن

مناداتي باسم السيد دي لاس كازس ، لأن مناداتي بهذا الإسم كانت تتيح له أن يؤكد بأنه كثيراً ما رأى والدي في التويلري .: وأن يذكر عما لي كان يلعب معه الورق ... وكان يقول .

ــ لقد كان حقاً إنساناً غريب الأطوار ! ما من مرة طرح فيها ورقة من أوراقه الكاسبة إلا صاح : دومينو ! ...

وكان حديث البارون يكاد يكون كله من هذا القبيل ؛ ولم يكن أحد سواه يكاد يتكلم على المائدة . وما أن كنا ننتهي من الطعام حتى كان يحتبس في صمت أشبه بصمت المومياء ...

فلما أن هممنا بترك الحجرة ، دنت مني مدام فلوش وأسرّت في صوت منخفض :

ــ لعل السيد لاكاز يتلطف فيسمح لي بحديث معه ؟

وبدا لي أنها لم تكن راغبة في أن يسمع أحد هذا الحديث ، إذ جذبتني إلى جانب حديقة البقول قائلة في صوت مرتفع إنها تبغي أن تريني الأشجار المعرشة على الجدران .

فلما أيقنت أن أحداً لا يستطيع سماعنا ، قالت :

ــ إنما أردت أن أحدثك عن حفيد أختي .. أنا لا أريد أن تظنني نافذة لتعاليم الأب سانتال ... أما وأنت تنهل من مناهل العلم نفسها (وهذه هي عبارتها) ففي وسعك أن تكون لي خير مرشد .

— قلت : تكلمي يا سيدتي ، فيمكنك أن تثقي في إخلاصي .

— قالت : إنني لأخشى أن يكون موضوع رسالته من الموضوعات الخاصة التي لا طاقة بها لصبي في سنه .

فسألتها في شيء من القلق :

— أية رسالة ؟

— رسالته للبكالوريا .

فآليت لا أدهش لشيء بعد هذا ، وقلت .

— آه ! حسناً ، وما موضوع رسالته ؟

قالت : إن الأب يخشى من أن يكون للموضوعات الأدبية أو الموضوعات الفلسفية الخاصة أثر سيء في عقل صبي ميال إلى الأحلام .. (هذا رأي الأب) ؛ لذلك أوحى إلى كازمير أن يختار موضوعاً تاريخياً .

— ولكن يا سيدتي ، إن هذا الرأي قدره من الصواب ، وما الموضوع الذي أختاره ؟

— أرجو المعذرة ، إنني أخشى تحريف اسمه . ابن رشد .

— ما من شك في أن لدى الأب أسباباً لاختيار هذه الموضوع الذي قد يبدو لأول وهلة طريفاً إلى حد ما .

ـــ لقد اختاراه معاً . أما الأسباب التي يذكرها الأب ليبرر بها هذا الاختيار فإنني مستعدة للاقتناع بها : لقد قال الأب أن هذا الموضوع فيه فتنة خاصة ، أشبه بتلك التي نجدها في القصص ؛ ومن شأن هذه الفتنة أن تسترعي انتباه كازمير وتركز فكره والحق ما أكثر ما يشرد فكره . ثم (ويظهر أن السادة الممتحنين يعلقون على هذا أهمية عظمى) أن الموضوع لم يعالج من قبل .

ـــ حقاً ، أنا لا أذكر أنه ..

فقاطعتني قائلة :

ـــ وبالطبع ، أنت مضطر ، حتى تقع على موضوع لم يعالج من قبل ، إلى أن تطرق مجاهل لم تطرق !

ـــ بالطبع !

على أنني أخبرك بما أخشاه ... ولكن لعلني أسرف ؟

ـــ يا سيدتي ، ألتمس منك أن تثقي في حسن استعدادي التام لمعاونتك ، ورغبتي التي لا حد لها في خدمتك .

ـــ حسناً ، أنا لا أضع موضع الشك أن كازمير سوف يكون قادراً بعد حين على التقدم برسالته للامتحان ، وعلى النجاح ... ؛ ولكنني أخشى أن يكون الأب ، رغبة منه في

التخصيص ، وهي رغبة سابقة لأوانها ، مهملاً بعض الإهمال أمر التعليم العام ، الحساب أو الفلك على سبيل المثال .

ـ فسألتها في حيرة : وما رأي السيد فلوش في هذا كله ؟

ـ قالت : إن السيد فلوش يوافق على كل ما يفعل الأب أو يقول .

ـ فسألها ، وأبواه ؟

فأجابت بعد تردد قليل . لقد عهد بالصبي إلينا .

ثم توقفت عن السير وقالت :

ـ ليتك يا سيدي تتفضل بالحديث إلى كازمير كيما تقف على أمره دون أن يوهم حديثك بأنك تتعمد الإستقصاء ... حادثة خاصة في منأى عن الأب فإنه سيء الظن . هذا ، وأنا واثقة من أنك تستطيع ...

ـ قلت : بكل سرور يا سيدتي . لن يتعذر عليّ أن أجد تعلة ما للخروج مع الصبي . سوف أسأله أن يريني بعض أرجاء الغيضة ...

ـ قالت : إنه يبدو أول ما يبدو خجولاً حيياً قبل من لا يعرفهم ، ولكنه أنيس بطبعه .

ـــ سوف تكونان عاجلاً صاحبين .
وبعد قليل اجتمعنا على طعام العصر ، فقالت :
ـــ كازمير ، ينبغي أن تُري السيد لاكاز المحجر ، فإنني واثقة من أن ذلك سيثير اهتمامه .
ثم دنت مني وقالت :
ـــ عجّلا بالرحيل قبل أن يحضر الأب ، فلعله أن يرغب في مصاحبتكما .
وخرجتُ إلى الغيضة على الأثر ، يقودني الصبي وهو يحجل . وبدأت حديثي معه قائلاً :
ـــ الآن أوان الفسحة .
فلم يجب بشيء ، فسألته .
ـــ ألا تعمل بعد طعام العصر بتاتاً ؟
ـــ قال : بلى ، ولكن لم يعد عندي اليوم ما أنسخه .
ـــ وما تنسخ ؟
قال : الرسالة .
ـــ آه ...
ثم ، بعد استقصاء قليل ، علمت أن هذه الرسالة إنما هي بحث خاص للأب عهد به إلى الصبي لنسخه لأن خطه سليم وكان عمله يتلخص في نقل أربع صور من الرسالة في أربع

كراسات مغلقة ، وكان ينقل كل يوم بضع صفحات . على أن الصبي أكدَ لي أنه يروقه أن «ينسخ» .

ــ فسألته : وفيم كتابة أربع صور ؟

ــ قال : لأنني استظهر في عسر .

ــ وهل تفهم ما تكتب ؟

ــ أحياناً ما أفهم ، وأحياناً يشرح لي الأب أو يقول إنني سوف أفهم إذا ما تقدمت في السن .

والواقع أن الأب كان قد صنع من تلميذه شيئاً أشبه بأمين يكلفه بالنسخ، أعلى هذا الوجه كان يفهم واجبه؟ وشعرت بقلبي يغمره الأسى ، وفكرت : لا بد من أن يجري لي مع الأب حديث مثير . وكان الغضب قد دفعني إلى إسراع خطوي دون أن أتنبه إلى أن كازمير كان يجهد إلى جانبي ليلاحقني ، ورأيته غارقاً في لجة من العرق ، فبسطت يدي إليه فاحتفظ بها في يده وشرع يخبّ إلى جانبي بينما أمهلت خطوي .

ــ وعدت إلى سؤاله : أهذه الرسالة من وضعك ؟

ــ فأجاب تواً : لا .

ولكنني لما تقصيت أدركت أن محصوله قليل . وما من شك في أنه تأثر لدهشتي لأنه أضاف :

ــ إنني أطالع كثيراً .

قال ذلك كما يقول المعدم : لدي من الثياب غير هذه التي أرتديها .

ـــ قلت : وما تستهويك مطالعته ؟

ـــ قال : كتب الأسفار الكبرى .

ثم أدار عينيه إلي فرأيت أن الأمن قد حل فيهما محل القلق ، وقال :

ـــ أتعرف أن الأب كان في الصين !

وأعربت لهجته عن إعجاب باستاذه وتجلة لا حد لها .

كنا قد أشرفنا على هذا الموضع من الغيضة الذي كانت مدام فلوش تسميه «المحجر» ، فإذا به أشبه بغور حوله أحراش تحجبه . وجلسنا على حجر تدفئه شمس قد مالت إلى الغروب . وكانت الغيضة تنتهي عند هذا الموضع دون أن يحدها حد . كنا قد تركنا عن يسارنا طريقاً تنحدر منحرفة إلى جانب يعترضها حاجز صغير ، وكان انحدار الطريق لحدته بمثابة تحصين انشأته الطبيعة إلى حدود الغيضة .

ـــ وسألت كازمير : وأنت يا كازمير ، هل قمت بأسفار !

فطأطأ رأسه ولم يجب ...

كان الوادي من تحتنا تغمره الظلمة ، وكانت الشمس

تلامس تلاً وقف أمامنا معترضاً الأفق . وكانت هنالك طائفة من أشجار الكستناء والبلوط تتوج أكمة جيرية انبثت فيها أوكار الأرانب . كان المنظر رائعاً موحشاً ، يتعارض في روعته ووحشته مع الفتور الذي عم المنطقة . وفجأة صاح كازمير :

أنظر إلى الأرانب ..

وبعد قليل أضاف وهو يشير بأصبعه إلى أعالي الأكمة :

ــ لقد صعدت يوماً مع الأب إلى هذا المكان .

ومررنا في عودتنا ببركة غشيتها أعشاب مائية ، فوعدت كازمير بأن أعد له قصبة وشصا وأعلمه كيف يصيد الضفادع .

ولم تختلف هذه الليلة الأولى ، التي لم تمتد إلى ما بعد التاسعة ، عما تلاها من ليال (وكذلك عما سبقها فيما أظن) إذ راعى مضيفي وزوجه ألا يسرفا في تلطفهما إلي ، فما كاد العشاء ينتهي حتى دخلنا حجرة الجلوس حيث كان جراسيان قد أزكى النار في الموقد أثناء تناولنا الطعام ، وكان يضيء الحجرة مصباح كبير موضوع على منضدة من الخشب المطعم . وكان المصباح يرسل نوره على طرف المنضدة فيضيء الأب والبارون في تناقلها النرد ، كما كان يضيء مائدة مستديرة جلست إليها النساء يلعبن البزيج (Basigue) ..

ـــ وقالت مدام دي سان أوريول : لا شك في أن السيد لاكاز ، وقد ألف لهو باريس ، سيجد لهونا فاتراً ...

وكان السيد فلوش قد انتحى جانباً من الموقد وأخذ يغالب النوم في مقعد وثير ؛ أما كازمير فقد كان يطالع رحلة حول العالم ، معتمداً بمرفقيه إلى المنضدة واضعاً رأسه بين يديه بينما كانت شفتيه المتدلية فيها اللعاب . ورأيت من اللياقة وحسن التصرف أن أبدي شيئاً من الإهتمام بلعب النساء . كان من الممكن أن يكتفي اللعب بثلاثة لاعبين ، شأنه في لعبة « الوست » (Whist) ، ولكن تمام لعبة البزيج أن يشترك فيها أربعة ؛ لذا قبلت مدام دي سان أوريول ، دون أدنى تردد ، أن أكون شريكها لما عرضت أن أشترك في اللعب .

وخسرت في الليالي الأولى ، وفرحت مدام فلوش لكسبها . وكانت بعد كل كسب تظفر به تضرب ذراعي ضرباً خفيفاً بيدها النحيلة التي كساها قفاز ينتهي عند منبت الأصابع ؛ وكان اللعب يتطلب قدراً غير هين من الإقدام والمهارة والتحايل . وكانت الآنسة أولامب تلعب في دقة وروية . أما النقط التي كان لا بد من الحصول عليها للكسب فكانت تحدد في بداية اللعب ؛ ثم ، حسبما كان لدى اللاعب من الورق ، كان ينادي ويعرض

ويزايد .. وقد كان هذا كله يخلق مجالاً للحيلة والخداع . وكانت مدام دي سان أوريول تقبل على المزايدة في همة وقحة تبعثان في عينيها بريقاً وفي وجنتيها حمرة وتجعلان ذقنها ترتجف ؛ فإن أنست بين يديها أوراقاً طيبة ركلتني برجلها من تحت المائدة .

وكانت الآنسة أولامب تبذل جهدها للصمود لها ولكنها كانت ترتد مغلوبة على أمرها حين كانت تصيح فجأة في صوتها الحاد :

ــ يا آنسة فردور ، أنت تكذبين !

وكانت مدام فلوش ، في نهاية الدورة الأولى من اللعب ، تخرج ساعتها ثم ، كأن الوقت قد أزف لنهوض كازمير ، كانت تناديه قائلة :

ــ هلمّ يا كازمير ، لقد أزف الوقت .

فكان الغلام ينهض ، وهو يغالب النوم في مشقة ، فيبسط يداً مسترخية لتحية الرجال ، ويقدم جبينه للنساء يلثمنه ثم يخرج وهو يجرّ أذياله ويحجل .

وكان لاعبا النرد ينتهيان من اللعب عادة حين كانت مدام دي سان أوريول تدعونا للشروع في الدورة الثانية ؛ فكان السيد فلوش ، في بعض الأحيان ، ينهض من مقعده ويحتل مكان سلفه

ثم يلعب هو والأب في صمت لا يسمع خلاله سوى صوت دحرجة النرد في القرطاس أو على الطاولة . أما السيد دي سان أوريول فكان يقبع في مقعده فيهشّ أو يتغنى في صوت خفيت ، وأحيانا ما كان يضرب النار فجأة بالملقط ضربة طائشة تجعل الجمر يتناثر بعيداً ، فكانت الآنسة أولامب تنطلق إلى البساط لتلتقط الجمر أو لتخمد النار ، وتقوم لذلك برقص طريف كانت مدام دي سان أوريول تسميه ، في تأنق ، «رقص الشرر» . وكان السيد فلوش ، في أكثر الأحيان ، يترك الأب والبارون يتابعان لعبهما ولا يغادر مقعده . وكنت أستطيع، وأنا في مكاني أن أراه يحرك رأسه في الظلام رغم تكلفه النوم . وفي أول ليلة قضيتها ، هب اللهب فجأة وأضاء وجهه فشاهدت يغالب نشيجه .

كان اللعب ينتهي في التاسعة والربع ، فكانت مدام فلوش تطفىء المصباح ، وتوقد الآنسة فردور مشعلين تضعهما على جانبي طاولة النرد ، بينما كانت مدام دي سان أوريول تذهب إلى زوجها وتضرب كتفه بمروحتها ، وتوصي الأب قائلة :

ـــ يا سيدي الأب ، لا تدعه يسهر طويلاً .

ورأيت أنه يليق بي أن أستجيب لدعوة النساء ، من أول ليلة ، فانصرفت تاركاً الأب والبارون في تناقلهما النرد ، والسيد

فلوش في نجواه وتأمله ، ولقد كان آخرنا إنصرافاً . فلما أن وصلنا إلى الدهليز تناول كل مشكاة ؛ ثم أخذت النساء يحيينني على غرار تحية الصباح ، وهكذا كنت أدخل حجرتي وما أن ألبث فيها قليلاً حتى أسمع الرجال يصعدون إلى حجراتهم ثم يسود السكون ؛ ولكنك ترى النور ينبعث من تحت بعض الأبواب ويظل منبعثاً زمناً ليس بالقليل ؛ وإذا ما اضطرتك حاجة إلى الخروج ، كان من المحتمل أن تلقى مدام فلوش أو الآنسة فردور ، في ملابس الليل ، تهجان في الدهليز وتقومان بآخر الترتيبات ، حتى إذا ما حسبت بعد ذلك أن كل ضوء قد خبا ، شاهدت ـــ خلف كوة من الزجاج تستمد ضوءها من الدهليز ولكنها مغلقة دونه ـــ مدام دي سان أوريول ، خلف هذه الكوة ، أشبه بخيال الظل ، ترفي وترتق .

— ٤ —

وتقضي اليوم الثاني في الكارفورش ، على غرار اليوم الأول ، متعاقب الساعات دون أي تغيير يُحسّ ؛ على أن هذا الفضول الذي كان يدفعني إلى معرفة مشاغل مضيفي كان قد تلاشى تماماً . وتنفس الصبح عن سماء أرّذت وتساقط منها طلّ رفيع ؛ ولما كان التريض في هذه الحال متعذراً وكان حديث النساء يزداد تفاهة ، رأيت أن أشغل ساعات يومي كلها تقريباً في العمل . ولم يتيسر لي أن أبادل الأب إلا بعض الكلمات وكان ذلك بعد الغداء إذ دعاني الى تدخين سيجارة على بعد خطوات من حجرة الإستقبال ، في موضع أشبه بمخزن جوانبه من زجاج ، كان يطلق عليه القوم في شيء من التعظيم : السقيفة . وكانوا يستودعونه مقاعد الحديقة وكراسيها في فصل الشتاء .

فلما أن عرضت لموضوع تعليم الصبي عرضاً داخله شيء من الحدة ، أجابني :

ولكن يا سيدي ، انني لم أصب إلى شيء خيراً من إرشاد الصبي بقليل ما عندي من علم ، وما عدلت عن ذلك إلا مكرهاً آسفاً . أكنتَ تقرّني ، وهو على ما هو عليه من خجل ، لو تراءى لي أن أعلمه الرقص على الحبل المشدود ؟ سرعان ما رأيتني مضطراً إلى الحد من طموحاتي ؛ ولئن كنت أشغله معي في دراسة ابن زهير فذلك أنني أخذت نفسي ببحث في فلسفة أرسطو ورأيت إشراكه معي في هذا البحث بدلاً من أن أتلو معه في غير جدوى كتاباً من كتب اللغة . هذا ولا فرق عندي بين هذا الموضوع وغيره فالمطلوب هو إشغال الصبي بضع ساعات كل يوم . أكان في وسعي أن أمنع نفسي عن بعض السخط لو أنه اضطرني إلى ضياع هذه الساعات من وقتي دون أن يعود عليه ذلك بنفع ما ... والآن كفى كلاماً في هذا الصدد ، ألا ترى ؟

وألقى سيجارته ؛ وكان قد تركها تنطفيء . ونهض عائداً إلى حجرة الاستقبال .

كان الجو رديئاً عاقنـــي عن الخروج مع كازمير ، فاضطررت الى إرجاء ماأزمعنا القيام به. على أنني لما رأيت كور الصبي وأساه حاولت أن أجد له وسيلة أخرى للهو ، وإذ عثرت

على رقعة للشطرنج عكفت على تعليمه لعبة الثعلب والدجاج ، فهام بها حتى العشاء .

وبدأت الليلة كما بدأت سابقتها ، غير أنني لم أعد أصغي أو أنظر إلى أحد وأخذ يثقل على صدري ضيق لا سبيل إلى وصفه .

وهبّت بعد العشاء تواً ريح عاصفة ، فتوقفت الآنسة فردور عن اللعب وصعدت إلى الحجرة العليا لترى هل تدفق إليها المطر . واضطرنا غيابها إلى اللعب دونها في الدورة الثانية فافتقر اللعب إلى النشاط والحمية . وكان السيد فلوش ينعس على شدو المطر المنهمر ، ويغوص في مقعده المنخفض إلى جانب الموقد ، وإذا به يستغرق في نوم عميق بينما جلس البارون على مقعد قبالته يشكو داء المفاصل ويتذمر . وعبثاً ما حاول الأب ، لما أن لم ير أحداً سواه يناقله النرد ، أن يزين له اللعب قائلاً :

ــ لعل النرد أن يلهيك عن الملك .

فلما يئس منه انصرف مصطحباً كازمير ليقوده إلى فراشه .

في ذاك المساء ، لما أن عدت إلى حجرتي ورأيتني وحدي ، ناصبني هم تملك النفس حتى كاد يذهب بالفؤاد ؛ وما هي إلا آونة حتى تحول همي إلى جزع وهلع .

كانت سدل من الأمطار تفصلني عن العالم الحي وترديني رهين كابوس مروع ، في منأى عن كل عاطفة بين قوم عبوس لا يسعك أن تعدهم من البشر ، قد امتقعت وجوههم وجمد الدم في عروقهم وكف القلب فيهم عن الخفقان . ففتحت حقيبتي وتناولت دليل السكة الحديدية . إليّ بقطار ! أياً كانت الساعة ! ليلاً أم نهاراً .. فليلقني بعيداً عن هذا المكان ! إنني هنا أختنق !

لعلني لم أكن أقل عزماً على الرحيل لما أن استيقظت غداة ذلك ، غير أنه بدا لي أنه لا يليق بي أن أولي الأدبار دون أن أجد عذراً أبرر به بتر إقامتي . ألم أصرح لمضيفي دون تبصر مني بنيتي الإقامة في الكارفورش أسبوعاً على الأقل ! هلم ، سوف تستدعيني إلى باريس أنباء سيئة ... ولحسن الإتفاق ، كنت قد تركت عنواني في باريس وطلبت أن يحوّل إلى الكارفورش بريدي كله . وفكرت . إنها لمعجزة حقاً إن لم يرد إلي اليوم خطاب أستطيع أن أستغله في حذق ... وأرجأت أملي إلى حضور الساعي ... وكان هذا يحضر بعد الظهر بقليل ، ساعة انتهائنا من وجبة الغداء . وكنا لا ننهض عن المائدة قبل أن تأتي دلفين برزمة الخطابات الهزيلة . وكانت تقدمها إلى مدام فلوش فتقوم هذه بتوزيعها على الحاضرين . وحدث لسوء الحظ أن دعي الأب

سانقال في ذاك اليوم إلى تناول الغداء عند عميد بلدة بون لينفيك ، فأقبل في الحادية عشرة يودع السيد فلوش ويودعني ، ولم أتنبه تواً إلى أنه يسلبني الجواد والعربة .

وعلى ذلك قمت في أثناء الغداء ، بتمثيل الفصل الذي وطنت النفس على تمثيله فهمست وأنا أفض مظروفاً كانت مدام فلوش قد قدمته إلي .

ـــ يا للضجر !

فلما لم يلتفت أحد من الحاضرين إلى تعجبي ، تحرجاً من سؤال يشتم منه الفضول عاودت قولي وأنا أبالغ في دهشتي متكلفاً الكدر، في حينه ظلت عيناي تطالعان رسالة لا خطر منها.

ـــ يا للأسف !

فتجرأت مدام فلوش آخر الأمر وسألتني في استحياء :

ـــ أي نبأ سوء أزعجك يا سيدي ؟

ـــ أوه ! لا شيء ذا بال ! غير أني للأسف أراني مضطراً إلى العودة إلى باريس فوراً . وهذا ما يكدرني .

وعمت الدهشة أطراف المائدة كلها وفاقت كل ما كنت أتوقع حتى لأحسست بالخجل يتصاعد إلى وجنتي ، وأعربت

هذه الدهشة عن نفسها أول ما أعربت بوجوم القوم وصمتهم ، ثم ألقى السيد فلوش في صوت يرجف .

ــ أحقاً هذا يا صاحبي ؟ ولكن عملك ؟ ولكن ...

غير أنه عجز عن إتمام عبارته ، ولم أجد ما أجيبه به بل شعرت أن التأثر يكاد يتملكني أنا أيضاً . وسددت بصري إلى هامة كازمير فرأيته يقطع تفاحة إرباً وأنفه غارق في طبقه . أما الآنسة فردور فقد كان وجهها من شدة الغضب يلتهب .

وألقت مدام فلوش في صوت ضعيف .

ــ أنخشى أن نتطفل عليك إن سألناك أن تبقى !

فقالت مدام دي سان أوريول في جفاء :

ــ أبما تقدمه له الكارفورش من متعة ، نسأله أن يبقى !

وحاولت أن أعترض :

ــ ولكن يا سيدتي ، ليس من شيء ...

ولكنها دون أن تصغي إلي ، صاحت في أذن زوجها وقد كان يجلس إلى جوارها :

ــ إن السيد لاكاز يريد أن يفارقنا الان .

فقال الأصم وهو يبتسم لي :

ــ حسن ! حسن ! إنني مبتهج لذلك .

وقالت مدام فلوش للآنسة فردور :

ـــ ما عسانا نفعل ... والفرس قد مضت بالأب ؟ .

فتراجعت قليلاً عن موقفي وقلت :

ـــ حسبي أن أكون في باريس غداً أول النهار ... وقطار الليل قد يفي بحاجتي .

فقالت مدام فلوش :

ـــ ليذهب جراسيان تواً إلى بوليني ليسألهم أفي الإمكان أن نستعير جوادهم . أخبرهم أن عليك أن تقل سيداً لا بد من أن يلحق قطار الساعة ... والتفتت إلي سائلة :

ـــ أيلائمك قطار السابعة ؟ .

ـــ آسف يا سيدتي لإزعاجك ...

وانتهى الغداء في صمت ، اقتادني السيد فلوش إلى المكتبة . وما أن أصبحنا وحدنا في الممر المؤدي إليها حتى قال :

ـــ ولكن يا سيدي العزيز ... يا صاحبي العزيز ... لا زلت لا أستطيع أن أتصور ... ولكن لا يزال عليك أن تحيط بطائفة ... أمن الممكن ذلك حقاً ؟ يا للعائق ! يا للعائق المزعج ! لقد كنت أنتظر إتمامك بحثك الأول لأسلمك أوراقاً أخرى أخرجتها لك أمس مساء فقط .

وأعترف لك أني كنت أعتمد على هذه الأوراق حتى أستثير في نفسك إهتماماً جديداً وأستبقيك زمناً أطول . وعلى

ذلك ينبغي أن أطلعك عليها فوراً . تعال معي ، لا زال لديك متسع إلى المساء ، وإنني لا أجرؤ على سؤالك أن تعود إلينا . ألا ترى ؟ ..

ورأيتني خجلاً من تصرفي لما شاهدت كدر الشيخ . وكنت قد أمضيت نهار أمس كله في عمل متصل ، وكذلك صبيحة ذاك اليوم بحيث لم يكن يتبقّى إلا إلقاء نظرة عاجلة على الأوراق الأولى التي كان السيد فلوش قد عهد بها إليّ ؛ ولكن ما أن صعدنا إلى مقصورته حتى أسرع إلى درج واستخرج من باطنه ، في حركة خفيّة ، لفافة طويت في نسيج وشدت بخيط . وكان تحت الخيط صحيفة أشبه بجدول كتبت فيه قائمة الأوراق التي حوتها اللفافة ، ومصدرها وأصلها ، وقال :

دونك هذه اللفافة ؛ ليس ما بها بذي أهمية كله ، ولكنك تستطيع في سرعة أن تستخرج ما يهمّك منها .

وإذ كان يفتح أدراجاً أخرى ثم يغلقها متظاهراً بالانهماك ، هبطتُ إلى المكتبة ومعي لفافة الأوراق ، ففضضتها على المنضدة الكبرى .

ورأيت أن بعض الأوراق لها حقاً علاقة ببحثي ، غير أنها كانت ضئيلة العدد ، قليلة الغناء ، أغلبها مكتوب بيد السيد

فلوش ونفسه يتعلق بحياة ماسيون ، فلم تكن من ثم لتهمني كثيراً .

أحقاً كان فلوش المسكين يعتمد على هذا ليستبقيني ؟

نظرت إليه :

كان قد غاص في مقعده وأكبّ متأنياً ينظف ثقوب أداة صغيرة لسكب السندروسي . فلما أن انتهى من هذا العمل رفع هامته فإذا ببصرنا يتلاق . وأشرق وجهه بابتسامة حباها اللطف كله ، فلم يسعني إلا أن أنهض وأمضي إليه أحادثه . واتكأت على جناحي مقعده ، قبالة جسمه الصغير ، وسألته :

ـــ يا سيدي فلوش ، لم لا تحضر إلى باريس ؟ إنه ليسرنا حقاً أن نلقاك فيها .

ـــ إن الانتقال في سني مجهد يتطلب نفقات باهظة .

ـــ ألا تأسف على باريس قليلاً ؟

فقال وهو يرفع يديه :

ـــ حقاً كنت أنتظر أن يكون أسفي عليها أشد. قد تبدو خلوة الريف ، في أيامها الأولى ، شديدة صارمة على من كان كلفاً بالحديث ، ولكنه لا يلبث أن يألفها .

ـــ وإذن ، فأنت لم تحضر للإقامة في الكارفورش عن رغبة

أو هوى ؟ فانسل من مقعده ناهضاً ، ووضع يده في لطف على كمي ، قائلاً :

ـــ كان لي فيما مضى نفر من الزملاء في المعهد لا زلت أحفظ لهم أحسن الود ، من بينهم أستاذك البير دينوس العزيز ، وكنت في يوم ما على وشك أن أحتل مكاناً بينهم ...

وكان يبدو عليه أنه يبغي الاستطراد في الحديث ؛ ومع ذلك كنت أتحرج من سؤاله مخافة أن أصدمه ، فقلت :

ـــ أكانت مدام فلوش مفتونة بالريف .. ؟

ـــ.. لا ـــ ومع ذلك ما حضرت إلى الريف إلا لأجلها . أما هي فقد استدعاها إليه حدث عائلي صغير .

وهبط إلى القاعة الكبرى فأبصر اللفافة التي كنت قد أعددت ربطها ، فقال مكتئباً :

ـــ آه ! هل انتهيت من فحصها ؟ ... عسى أن تكون وجدت بعض المؤونة فيها . وما باليد حيلة ! إنني ألتقط أقل الفتات ، وأفكر أحياناً أنني أضيع وقتي سدى في جمع القتاد ؛ ولكن لا بد من رجال مثلي يوفرون على من كان مثلك عناء هذه الأعمال الصغيرة التي قد تنفعهم . وسوف أكون سعيداً يوم أقرأ رسالتك فأرى أن عنائي لم يذهب هباء وأنك قد أفدت قليلاً .

ودعانا الجرس لوجبة العصر .

كنت أردد في نفسي : كيف السبيل إلى معرفة هذا «الحدث العائلي الصغير» الذي أقنع هذين الشيخين بالإقامة في الريف ؟ أيعرف الأب هذا الحدث ؟

كان ينبغي علي بدلاً من معاداة الأب أن أسعى إلى استئناسه . على أية حال فلا مرد لما حدث ؛ ومهما يكن الأمر فالسيد فلوش رجل شهم ، ولسوف أحفظ له أطيب الذكرى ...

وأقبلنا على حجرة الطعام فإذا بمدام فلوش تتلقاني بقولها :

ـــ إن كازمير لا يجرؤ على سؤالك أن تربض معه قليلاً في الحديقة ؛ أنا أعرف أنه يتوق إلى ذلك ، ولكن لعل الوقت لا يتوفر لك ؟

وكان الصبي يغوص بوجهه في طاس فيه لبن ، فرفعه وبدأ عليه الفرح ، فقلت :

ـــ كنت على وشك أن أقترح عليه مرافقتي . لقد تمكنت من إنجاز عملي ، ولسوف أكون بلا عمل إلى ساعة الرحيل . ها هي ذي السماء قد كفت عن الهطل ...

واقتدت الصبي إلى الغيضة .

كان الصبي في طريقنا يمسك إحدى يدي ، فلما أن بلغنا أول منعطف ضمها إلى وجهه الملتهب وضغط بها عليه طويلاً ثم قال :

ـــ لقد ذكرت لي أنك سوف تقيم بيننا ثمانية أيام ...

ـــ يا بني المسكين ! ليس في وسعي أن أقيم مدة أطول ...

ـــ إنك سئمت الإقامة .

ـــ لا ! ولكن لا بد من الرحيل .

ـــ وإلى أين أنت راحل ؟

ـــ إلى باريس لكن سوف أعود .

وما أن نطقت بهذه العبارة حتى نظر إليَّ متردداً وسألني :

ـــ أحقاً هذا ؟ أو تعدني به ؟ .

كان سؤال الصبي ينم عن شيء من التصديق كثير ، فلم يطاوعني قلبي على مناقضته وقلت :

أتود أن أكتب لك على وريقة تحتفظ بها ؟

فقال وهو يلثم يدي لثماً شديداً ويقفز فرحاً كمن به مس :

ـــ أي نعم ...

ـــ أتدري ما قد يكون مستحباً عمله الآن علينا ، بدلاً من أن نذهب للصيد ، أن نجمع أزهاراً لعمتك ونحمل إليها باقتين ونباغتها بهما في حجرتها .

وكنت قد آليت ألاّ أغادر الكارفورش دون أن أزور حجرة إحدى العجائز ؛ ولما أن كن يتنقلن في أطراف الدار دون أن ينقطع لهن انتقال ، كنت معرضاً لأن تباغتني إحداهن لو قمت بهذه الزيارة المتطفلة وحدي . لذا اعتمدت على الصبي لأجد علّة لوجودي ، ولعل دخولي في أثر الصبي إلى حجرة جدته أو خالة أمه لم يكن أمراً طبيعياً ، ولكنه بفضل هذه الباقة من الأزهار يتيسر لي أن أبرر إلى حد ما ، وجودي .

على أن جمع الأزهار في الكارفورش لم يكن أمراً ميسوراً كما كنت أحسب ، فإن جراسيان كان يشرف على الحديقة ويلاحظها في شدة وصرامة ؛ لم يكن يكتفي بارشادك إلى الأزهار القابلة للقطف بل كان يحرص أيضاً حرصاً شديداً على أن يعلمك الحيطة والدقة في قطافها ولقد أوضح لي كازمير كل ذلك ونحن في طريقنا إلى الحديقة .

واقتادنا جراسيان إلى مجموعة عظيمة وافرة من زهر الداليا كنت تستطيع لوفرتها أن تقطف منها باقات عدة دون أن يظهر أن المجموعة قد مُسّت .

ـ قصها من أعلى أفنانها يا سيدُ كازمير ، لكَمْ ينبغي أن أردد ذلك ؟ قصها من أعلى الأفنان .

فصحت به وقد ضقت ذرعاً :

ليس هذا بذي خطر الآن وقد أوشك زمن الأزهار أن ينتهي فأجابني وهو يهمهم :

ــ إن هذا خطره في كل آن ... وليس من زمن يستباح فيه العمل السيء .

إني أبغض المتزمتين الذين لا يحلو لهم الكلام إلا في أسلوب الحكم والأمثال .

وتقدمني الصبي وهو يحمل باقة الأزهار ، فلما أن مررنا بالدهليز وجدت إناء فاستوليت عليه ...

كان السكون الذي يسود حجرة العجوز أشبه بما تراه في دور العبادة كانت مصاريع النافذة مغلقة وإلى جانب الفراش مركع من خشب الكابلي يكسوه نسيج من المخمل الأحمر ، وعلى الجدار ، فوق المركع ، صليب من العاج والأبنوس حجبه إلى نصفه غصن رفيع من البقس علق بشريط وردي وثبت طرف منه بإحدى ذراعي الصليب . وكانت الساعة توحي بالصلاة والموقف يدعو إلى التأمل والخشوع ، فرأيتني أنسى ما أتيت من أجله وما اجتذبني إلى هذا المكان من تطفل وفضول فتركت كازمير يرتب الأزهار كما تراءى له ، ولم أعد أنظر إلى شيء في الحجرة . وإذا بي أناجي النفس قائلاً : على هذا الفراش سوف تقضي مدام فلوش

العجوز نحبها ، سوف تصعد روح هذه السيدة الكريمة إلى باريها وهي في منأى عن زوابع الحياة .. أيها الركب الذي يسأل عن عاصفة الريح ، أقبل على هذا الثغر الأمين !

كان كازمير قد ضاق ذرعاً ويأساً من ترتيب الأزهار لأن فروع الداليا الثقيلة كانت كلما أقامها تميل بالاناء ، وفجأة تدحرجت الأزهار كلها على الأرض فلما أن عيل صبره قال :

ـــ ليتك تعاونني .

وبينما كنت أقوم بترتيب الأزهار مكانه ، جرى إلى طرف الحجرة حيث وقف عند مستودع صغير فتحه ثم قال :

ـــ سأكتب لك الورقة التي تتعهد فيها بالعودة إلى الكارفوريش فأجبته في شيء من التكلف :

ـــ نعم ، نعم ، عجّل ، فقد تغضب خالتك إن رأتك تنقب في مستودعها .

ـــ إن خالتي في المطبخ مشغولة ، ثم هي لا تزجرني أبداً .

وتناول ورقة من أوراق الخطابات وعكف على الكتابة متوخياً إجادة خطه ما تيسر له ثم قال :

ـــ هلم وقع الآن .

فلما أن دنوت منه وقرأت ما كتب ، قلت ضاحكاً :

ـــ ولكن كان يجب ألا توقع الورقة باسمك يا كازمير .

لا ريب في أن الغلام ، وهو يقصد إلى أن تكون صيغة التعهد أشد حبكاً وإحكاماً ، وكان قد التبس عليه الأمر فظن أنه هو الذي يتعهد فوقع الورقة ؛ وإليك ما قرأت .

«إن السيد لاكاز يتعهد بالعودة في العام القادم إلى الكارفورش»

كازمير دي سان أوريول

فلما رآني أضحك ، وأصغى إلى ملاحظتي ، ظل برهة مضطرباً حائراً ، فإنه لم يكتب ما كتب إلا منقاداً بدافع من قلبه ! وظن أنني لا أعتبر هذا التعهد جدياً ؛ وتساءل آهزأ به ؟ ورأيت الدمع يكاد يتفجر من مآقيه ، فقلت :

ـــ دعني أجلس مكانك فأوقع باسمي .

فنهض من مكانه ، وما أن وقعت حتى قفز من شدة الفرح . ولثم يدي مراراً ؛ فلما أن هممت بالإنصراف أمسكني من كم ردائي ومال نحو الخزانة قائلاً ، وهو يعالج لولباً فيها :

ـــ سوف أريك شيئاً .

ثم بعد أن نقب قليلاً في الدرج بين شرائط وإيصالات اختلط بعضها ببعض أخرج إليَّ صورة صغيرة الحجم حولها إطار ، وقال :

ـــ أنظر !

فدنوت من النافذة .

أية قصة هذه التي هام البطل فيها بالأميرة ما أن رأى صورتها ؟ ليس من شك في أن هذه الصورة إنما هي صورة هذه الأميرة . أنا لا أدرك شيئاً في فن التصوير ، واهتمامي به قليل ؛ على أني أجزم أن خبيراً في هذا الفن يحكم على أن هذه الصورة لا تخلو من صنعة ، فإنك إن كنت لا تكاد ترى أثر الشخصية فيها ، لفرط ما أضفاه عليها المصور الفنان من ملاحة وظرف . على أن هذه الملاحة نفسها كانت من الصفاء بحيث كان يتعذر عليك أن تنساها . هذا ولم أكن لأهتم بعيوب التصوير أو محاسنه . وتأملت في المرأة الماثلة أمام عيني ، ولم يكن يظهر إلا جانب من محياها ، فرأيت وجهاً قد حجب وجنته خصلة ثقيلة سوداء تدلت على عين ناعسة الطرف حالمة متوجعة ، وشاهدت ثغراً منفرجاً ، كأنه يزفر ، وجيداً أدق من العود . لقد كانت هذه المرأة ذات حسن خالص وسحر فتنتُ به فغبت عن الوجود .

وعاد إليّ كازمير وكان قد بعد عني ليخلص إلى ترتيب الأزهار ، ومال إليّ قائلاً :

ـــ هذه أمي إنها جميلة ، ألا ترى ؟ .

وشعرت قبل الصبي بشيء من الحرج إذ تراءت لي أمه على هذا الجمال الفائق ، وسألته :

ـــ أين هي الآن ؟ .
ـــ لا أدري .
ـــ لِمَ لا تقيم معك ؟ .
ـــ إنها تملّ الحياة هنا .
ـــ ووالدك ؟
فأطرق لحظة مضطرباً ... ثم قال ، في شيء من الاستحياء :
ـــ لقد توفي .
كانت أسئلتي ولا ريب تثقل عليه ، ولكنني كنت مصراً على أن أذهب في استقصائي إلى أبعد ما أستطيع ، فقلت :
ـــ أو تحضر والدتك لتراك أحياناً ؟ .
فرفع رأسه بغتة وقال في تأكيد .
ـــ نعم ، كثيراً ما تحضر .
ثم أضاف في صوت خافت :
ـــ إنها تحضر فتتحدث إلى خالتي .
ـــ أهي تتحدث إليك أيضاً ؟

ـــ إليّ ! أنا لا أعرف كيف أحدثها ... هذا ، وهي تحضر أثناء نومي .

ـــ أثناء نومك ؟ .

ـــ نعم ، فإنها تحضر ليلاً ...

ثم انقاد إلى أمنه الفطري (وكان قد تناول يدي لما أن وضعت الصورة جانباً) فأضاف قائلاً في حنو وكأنه يُسرُّ إلي بسرٍّ :

ـــ لما حضرت آخر مرة أقبلت على سريري وقبلتني ...

ـــ أمي لا تقبلك عادة ؟

ـــ بلى ، تقبيلاً شديداً .

ـــ فيم قولك إذن «آخر مرة» ؟ .

ـــ ذلك أنها كانت تبكي .

ـــ أكانت خالتك ترافقها ؟

ـــ لا . دخلت وحدها في سواد الليل . وكانت تحسبني نائماً . وهل أيقظتك ؟ .

ـــ لم أكن نائماً بل كنت في انتظارها .

ـــ اذن كنت تعلم بحضورها ؟ .

فأطرق مرة أخرى ، وألححت في سؤالي :

كيف علمت بحضورها ؟ كيف تيسر لك أن تراها في سواد الليل تبكي ؟ .

ـــ فأجابني : إني لمست وجهها .

ألم تسألها أن تبقى ؟ .

ـــ بلى . وكانت تميل على فراشي وكنت أقبض على شعرها .

وما كان قولها لك ؟ .

ضحكت وقالت إني سأحلّ شعرها ؛ وأنه كان لا بد لها من الرحيل .

ـــ إنها لا تحبك إذن ؟ .

فتنحى عني فجأة وقد التهب وجهه وصاح في صوت صدر من كوامن القلب حتى لخجلت من سؤالي :

ـــ بلى إنها تحبني حباً فائقاً .

ودوى صوت مدام فلوش في أسفل السلم :

ـــ كازمير ! كازمير ! إذهب إلى السيد لاكاز وبلغه ان الوقت حان ليتأهب للرحيل ، فإن العربة ستحضر بعد نصف ساعة .

فانطلقت كما ينطلق السهم وهبطت السلم ولحقت بالعجوز في الدهليز وسألتها :

ـــ مدام فلوش ! أَمِنَ الميسور أن أكلف أحداً ببرقية ؟ لقد وجدتُ سبيلاً للبقاء بينكم بضعة أيام أخر .

فتناولت يدي بين يديها وصاحت :

ـــ آه أحقاً هذا يا سيدي العزيز ... ؟ .

ولما كان التأثر قد بلغ بها مبلغاً لم يسمح لها بأن تقول شيئاً آخر أخذت تردد :

ـــ أحقاً هذا ... ؟ .

ثم جرت إلى نافذة فلوش ونادته :

ـــ يا صاحبي ! يا صاحبي (هكذا كانت تدعوه) إن السيد لاكاز يرغب في البقاء .

كان صوتها الضعيف في جلجلته يحكي صوت جرس تصدعت أطرافه ومع ذلك فإنه بلغ مسامع صاحبها إذ رأيت النافذة تفتح وأطلّ منها السيد فلوش ، وما أن أدرك ما ذكرت حتى صاح :

ـــ إنني قادم ! إنني قادم !

وانضم إليه كازمير . ولبثت ساعة أواجه ، قسراً ، تهاني القوم جميعاً كأنني فرد من أفراد الأسرة .

وقالت مدام فلوش :

ـــ أخشى أن أكون قد تطفلت عليك أثناء الغداء وأنا ألح

عليك في البقاء . أفي وسعي أن أطمئن إلى أنه لن يصيب أعمالك في باريس ضر ما لو بقيت بيننا ؟ .

ــ هذا ما أرجوه يا سيدتي العزيزة وهأنذا أبعث إلى صديق طالباً منه العناية بأعمالي .

وكانت مدام دي سان أوريول قد حضرت في هذه الأثناء وأخذت تروح بمروحتها وتدور في الحجرة صائحة في صوت بالغ الحدة : يا له من ظريف ! يا له من ظريف ! ؛ ثم ولت وساد الهدوء .

عاد الأب من بلدة بون ليفيك قبل العشاء بقليل ، ولما كان يجهل مشروع رحيلي لم يدهش لبقائي ؛ وخاطبني في لطف :

ــ يا سيد لا كاز لقد أحضرت معي من بون ليفيك بعض الجرائد . أنا لا أميل إلى مهاترات الصحف ، غير أنني فكرت في أنك قد تكون هنا محروماً من الأخبار بعض الحرمان ؛ لعل في هذه الجرائد ما يهمك .

وأخذ يبحث في باطن ثوبه ، ثم قال :

ــ لربما وضعها جراسيان مع الحقيبة في حجرتي : تمهل قليلاً حتى آتيك بها .

ـــ لا تفعل يا سيدي فسأصعد بنفسي لاستحضارها .

ورافقته إلى حجرته ، فدعاني إلى الدخول . وبينما كان ينظف ثيابه بفرشاة استعداداً للعشاء تبادلنا الحديث قليلاً ، ثم سألته :

ـــ أكنت تعرف أسرة دي سان أوريول قبل مجيئك إلى الكارفورش ؟

ـــ فأجابني : لا .

ـــ قلت : والسيد فلوش ؟ .

ـــ قال : لقد أنصرفتُ فجأة عن التبشير إلى التعليم ، كان بين رئيسي وبين السيد فلوش صلات وعلائق فعيّنني رئيسي لهذه الأعمال التي أقوم بها الآن لا ! ، لم أكن أعرف أحداً قبل مجيئي ، لا تلميذي ولا والديه .

ـــ بحيث كنت تجهل تلك الحوادث التي اضطرتْ السيد فلوش إلى مغادرة باريس فجأة من خمسة عشر عاماً حتى كان على وشك أن يعين في المعهد .

ـــ فقال متمتماً : لعل ذلك يرجع إلى تقلبات الدهر .

ـــ كيف ذلك ! أيعيش السيد فلوش وزوجه هنا من مآثر آل سان أوريول ؟ .

ـــ فقال ، وقد ضاق بما أقول : لا ، لا ، لقد أضاع آل سان أوريول أغلب ثروتهم ؛ ولكن الكارفورش ملك لهم . أما فلوش وزوجه فهما في بحبوحة من العيش ؛ ولئن كانا يعيشان في قصر سان أوريول فذلك لإعانتهم فإنهما ينفقان على الدار وحاجات المعيشة ، وهما بهذه الوسيلة يسمحان لآل سان أوريول بالاحتفاظ بالكارفورش . ولسوف يؤول هذا القصر فيما بعد إلى كازمير ، وهذا هو كل ما يستطيع الصبي أن يرتجي من بعدهم ...

ـــ أو ليست الكنة ميسرة الحال ؟ .

ـــ أية كنة ؟ أتعني والدة كازمير ؟ إنها بنت سان أوريول نفسه .

ـــ ولكن لِمَ يدعى كازمير إذن باسم سان أوريول ؟ .

فأجابني ساخراً : حقاً ؟ لا بد إذن أن نقدر أن الآنسة دي سان أوريول قد تزوجت من أحد أبناء عمها يدعى بنفس هذا الإسم .

فأجبته وقد أدركت ما يعني رغم ترددي في استخلاص ما يمكن استخلاصه :

ـــ حسناً .

وكان قد انتهى من تنظيف ثيابه ، فوضع قدمه على حافة النافذة وأخذ يضرب حذاءه بمنديله ليزيل عنه الغبار ؛ وسألته :

ــ أوتعرف الآنسة دي سان أوريول ؟ .

ــ لقد رأيتها مرتين أو ثلاثاً ، غير أنها لا تمر من هنا إلا مروراً عابراً .

ــ وأين تقيم ؟ .

فانتصب واقفاً ، وألقى منديله المغبر إلى جانب ، ثم قال :

ــ أهذا استجواب ؟ .

وتوجه نحو مصب المياه ، ثم قال :

ــ سيدعونا الجرس للعشاء بعد قليل ، ولن أكون مستعداً له !

وفهمت أنه يدعوني للإنصراف ، ولم يكن من شك عندي في أن شفتيه المضمومتين تكتمان الخبر الكثير ولكنه لن يسمح بأن يفلت منهما شيء .

— ٥ —

بعد ذلك بأيام أربعة كنت لا أزال في الكارفورش وقد قلتْ هواجسي عما كانت في يومي الثالث ولكني كنت متعباً مكدوداً . لم أظفر بجديد ، فلا الحوادث اليومية الرتيبة أتتني بخبر يفتح لي آفاقاً ، ولا الكلام المتداول بين مضيفي مدّني بقبس يهديني . وبدأت أحس أن فضولي أخذ يحتضر لقلة ما يأتيه من غذاء . ففكرت : عليّ أن أعدل عن فكرة كشف جديد ، ولأتخذن العدة إذن للرحيل فإن كل ما يحوطني يتواطأ ويحجم عن الإدلاء بما يعلم . كان الأب يتكلف البكم منذ أن أطلعته على اهتمامي بما يكتم . أما كازمير فما زاد اطمئناناً إليّ إلا زدت تحرجاً من سؤاله ؛ هذا إلى أنني كنت أعرف الآن أغلب ما يستطيع الإفضاء به ، وهو لا يزيد عما أفضى به أن أراني صورة أمه .
بلى ، لقد أفضى الصبي باسم أمه في براءة وأمن . وليس

من شك في أن هيامي بهذه الصورة التي ربما صنعت من خمسة عشر عاماً ، كان أمراً جنونياً ؛ ولو حدث أن إيزابيل دي سان أوريول (وهذا اسمها) أقدمت على الظهور ، أثناء إقامتي في الكارفورش كعادتها في ظهورها العابر لما استطعت ولا تجاسرت على التعرض لها .

ومهما يكن الأمر ، لقد رأيتني أشغل بها ولا أحس السأم ؛ ومرت هذه الأيام مرور المجنّح سريعةً خاطفة فانقضى الأسبوع دون أن أتنبه لانقضائه . ولم يكن من المحتمل أن أطيل مدة إقامتي في الكارفورش بعد ذلك أكثر مما أطلت ، فلم يكن عملي ليقدم لي أسباباً تبرر تأخير رحيلي ولكنني في ذاك الصباح ، وقد كان آخر صباح أقضيه في الكارفورش ، رأيتني أضرب متجولاً في أنحاء الغيضة . وقد أبان الخريف عن سعة أرجائها وزاد في دويّ صداها . وكنت أنادي في صوت يضطرب بين الهوس والوحي إيزابيل ثم أخذ الصوت يعلو شيئاً فشيئاً : ؛ وإذا بهذا الإسم ، الذي أخذت منه أذني أول ما سمعته ، يكتسي حلاوة وظرفاً وكأنما امتزج به سحر خفيّ . وأخذت أردد : إيزابيل دي سان أوريول ! إيزابيل ! ..

وتراءى لي ثوبها الأبيض لدى كل منعطف يخفق ويتوارى .

وكنت ما وقع بصري على بصيص تخلل أوراق الشجر ، تلك

الأوراق التي لا تثبت على حال ، إلا ذكرت نور عينيها وتمثلت ابتسامتها الحزينة . ولما كنت لا أزال أجهل الهوى توهمتني محباً ، فأصغيت راضياً مغتبطاً إلى داعي الحب وأسلمت له قيادي .

ما أجمل الغيضة ! كانت والخريف فيها يحتضر تتهيأ لجلال الحزن وتعد للحداد عدتها . واستنشقت في نشوة أريج الأشنة في امتزاجها بالأوراق البالية . وتجردت أشجار الكستنا الصهباء من نصف ما أكسيت من أوراق ، ومالت بأذرعها خاشعة إلى الأرض . وتلألأ القطر على ندى خد العوسج فصبغه بحمرة أرجوانية عارضت خضرة الكلأ المجاور ، فبدا في خضرته أبهى وأنضر .

على خضراء الحديقة كنت تستطيع أن تتبين بعض أزهار «الكولشيك» ، ولكنك إن نظرت إلى أسفل ومددت بصرك في الوادي الصغير شاهدت خلف المحجر ، حيث كنت قد اعتدت الجلوس لما كان المطر يكف عن الهطل ، بساطاً وردياً نسجته هذه الأزهار على المرج . واخترت لجلوسي نفس الحجر الذي جلست عليه أول يوم خرجت فيه مع كازمير . لعل الآنسة دي سان أوريول كانت فيما مضى تجلس عليه وتطلق لأحلامها العنان .. فتخيلتني إلى جوارها أجلس ...

وكان كازمير . غالباً ما يرافقني في تجوالي ، غير أنني كنت أفضل السير وحدي ؛ وكان المطر يكاد كل يوم يباغتني أثناء سيري فكنت أعود إلى المطبخ مبللاً فأصطلي بناره وأجفف بللي . لم يكن لا جراسيان ولا الطاهية يميلان إلي ، ولم أتمكن على تلطفي المستديم إليهما أن أحظى منهما بكلمة . وكذلك لم أستطع أن أستأنس الكلب «ترنو» رغم مداراتي إياه ورغم ما كنت ألقي إليه من حلوى . كان يقضي أكثر ساعات النهار قابعاً في وسط الموقد ، فإذا ما دنوت منه زمجر . أما كازمير ، وقد كنت ألقاه في أغلب الأحيان جالساً على شفيرة الموقد منكباً على تنظيف الخضر أو عاكفاً على القراءة ، فكان حين يرى ذلك يضرب الكلب بكفه ضرباً خفيفاً لاغتمامه من قلة ترحيب الكلب بي . وكنت أتناول الكتاب من يد الصبي وأتابع القراءة وأنا أرفع صوتي فكان يعتمد علي ويصيخ بسمعه كله إلي .

على أن المطر في ذاك الصباح كان قد باغتني وهطل دفعة في شدة بالغة بحيث لم يسعني أن أفكر في العودة إلى القصر . فعدوت لأحتمي بأقرب مأوى ، فإذا به هذا المنزل المهجور الذي رأيتاه في طرف الغيضة على مقربة من الباب الحديدي وكان في ذلك الحين متهدماً كله ما عدا قاعة واسعة من قاعاته الأولى

كانت لا تزال محتفظة كأنها بأناقتها ردهة استقبال في ثوى أو محلة للصفا ؛ ولكن أخشاب جدرانها كانت متآكلة تتداعى لأقل رج .

فلما دخلت إليها، دافعاً أمامي بابها الذي لم يحكم إغلاقه ، حلق فوق رأسي بعض الخفاش ثم انطلق الخفاش إلى الخارج من خلال نافذة تعرت من زجاجها . وكنت أحسب المطر لا يدوم ، ولكنني وأنا أعلل النفس بالصبر رأيت السماء قد أطبقت وضرب حولي حصار لا أدري متى ينتهي أمده ! كانت الساعة العاشرة والنصف ، ففكرت : لأنتظرن حتى أسمع أول جرس يؤذن بالغداء فليس من شك في أنه يسمع من هذا المكان . وكان معي ما يسمح بالكتابة ، ولما أن كان بريدي معطلاً ، رأيت أن أبرهن لنفسي أن إشغال ساعة من الزمن لا يقل سهولة عن إشغال يوم ؛ ولكن فكري المضطرب كان لا يفتأ يعدل بي إلى الحب ويسرفني إلى أشجانه . لو علمت أنها قد تعود يوماً إلى هذا المكان لأحرقت الجدران بحرّ نجواي .. وبدأ يتسرب إلي ضجر أليم ، محمل بالعبرات . ووقفت إلى جانب من الحجرة واجماً مكروباً لا أجد مقعداً أجلس عليه ، وإذا بي في حرقة القلب أنتحب كطفل ضلّ السبيل .

إن لفظ الضجر لا يعبر إلا تعبيراً هزيلاً عن هذا الغصص الذي طالما أخذ بأنفاسي وملك حواسي ، غصص يلم بك فجأة ، ولا يظهر إلا ساعة أن تشعر بسمو اللحظة التي تنعم بها . كان كل شيء من حولك يضحك طرباً وكنت لكل شيء تضحك طرباً ، فإذا بأبخرة تتصاعد من سويداء النفس وتقف فاصلة بين رغبتك والحياة ، ثم إذا بهذه الأبخرة تؤلف حائلاً أدكن يفصلك عن بقية العالم ويمنع عنك حره وحبه وألمه وانسجامه ، فلا يأتيك هذا كله إلا ترجيعاً معنوياً لا يحرك من نفسك شعوراً ما ، فأنت ترى ولا تتأثر ، وتشاهد ولا يقع من قلبك ما تشاهد . وقد يؤدي بك جهودك اليائس ، الذي تبذله في سبيل اقتحام الستار الحاجز بينك وبين النفس إلى اقتراف أعظم الجرائم والآثام بل وإلى الانتحار والجنون ..

هذا ما كنت أقلب الفكر فيه وأنا أصيخ السمع إلى هطل المطر وكنت أمسك بيدي مقشطي الذي فتحته لبري القلم ، ولكن الورقة التي نزعتها من مذكرتي ظلّت بيضاء ، ورأيتني أحاول بحدّ مقشطي نقش اسمها على الجدار الملاصق . لم أكن مدفوعاً إلى ذلك بدافع من قلبي ولكن لأني أعلم أن كل عاشق ولهان يفعل ذلك . وكان الخشب البالي يفري ويتداعى لكل

ضغط ، وكل حرف أنقشه يتحول إلى ثقب . وكيما أشغل فراغاً لا أدري بم أشغله ، شرعت دون تعمد في تجريح الخشب بلا تبصر ، تدفعني إلى ذلك حاجة بلهاء إلى الهدم . وكان مربع الجدار الخشبي الذي أجرحه يقوم تحت النافذة رأساً ، وكان إطاره مفككاً في طرفه الأعلى بحيث يتيسر تحريك المربع كله من أسفل إلى أعلى بين فرضات الجدار الجانبية . وهذا ما تبينته لما أن رفع سلاحي ذلك المربع فجأة ، وهو يجهد فيما كان يجهد .

وما هي إلا لحظات قلائل حتى فري المربع كله ، وإذا بمظروف يهوي إلى الأرض مع فري الخشب . وكان المظروف ملوثاً أخمّ قد تلون بلون الجدار حتى لم يسترع نظري أول ما وقع عليه كأن وجوده بهذا المكان أمر طبيعي . ولشدة ما كنت عليه من جمود الفكر لم أبهت لرؤيته ، بل ولم أحاول فضّه تواً . وكان دميم المنظر قذراً ، فتناولته لإشغال فراغي ، ثم فضضته في سرعة ، وأخرجت منه ورقتين سودتا بخط عريض مختل طمس بعضه . وما هذا الخطاب ؟ نظرت إلى التوقيع فانبهرت عيناي :

إن إسم إيزابيل على أسفل الرسالة ! .

كانت تشغل فكري بحيث أني توهمت لحظة أنها كتبت إلي ما كتبت وهاك ما كتبت .

حبيبي ؛ إليك خطابي الأخير ، أسطر عاجلاً هذه الكلمات ، فإنني أعلم أني لن أستطيع أن أقول لك شيئاً هذا المساء . لن تجد شفتاي إلى جوارك سوى القبلات، فاسمع مني إذن في سرعة بينا أستطيع الكلام إصغ إليّ .

موعدنا الحادية عشرة متقدم جداً ، والأفضل أن يكون في منتصف الليل إنك لتعرف كم أتلظى صبراً إلى لقائك ، وكم يمضي الانتظار من نفسي ولكنني حتى أفيق إليك لا بد من أن يهجع القوم جميعاً . نعم ، منتصف الليل لا قبله . تعال إلى باب المطبخ للقائي (تتبع سور الحديقة فهو في منأى عن النور ، ثم عليك بالعوسج)، انتظرني هنالك ولا تنتظر قبالة الباب الحديدي ، لا لأنني أخشى اجتياز الحديقة وحدي ولكن لأن الحقيبة التي أحمل فيها بعض الملابس ستكون ثقيلة جداً ولن أقوى على حملها طويلاً .

والأفضل أن تبقى العربة في طرف الزقاق لنستطيع أن نستقلها في يسر ، فقد تنبح كلاب المزرعة وتلفت الأنظار ، لذا وجب الحرص .

لا ، يا صاحبي ، إنك لتعرف أنه لم يكن هنا لك سبيل إلى تلاقينا مرة أخرى كي نتفاهم على هذا كله شفاهاً . أنت

تعلم أنني أعيش هنا حبيسة ، وأن العجوزين لا يسمحان لي بالخروج كما لا يسمحان لك بالمجيء . آه ! من أي سجن مظلم أفر ... نعم ، لن يفوتني أن أحمل معي حذاءين أبدلهما بحذائي ساعة نستقل العربة فإن الكلأ في طرف الحديقة مبللّ .

كيف بك تسألني أعازمة أنا متأهبة ؟ يا حبيبي إنني من أشهر أستعد وأتأهب ! ومن أعوام أحيا في انتظار هذه اللحظة ! تسألني ألن أندم على شيء ؟ — ألم تفهم إذن أن الحال قد بلغت بي بحيث أصبحت أمج كل من لهم بي صلة هذا أبغض كل من يربطني بهذا المكان ؟ أهي حقاً إيزا من تحدثك الآن ، إيزا الفتاة الوديعة الحيية ؟ يا صاحبي ، يا رفيقي ، يا حبيبي ، ماذا صنعت بي ؟ .

إنني هنا أختنق ، وأفكر في هذه الآفاق التي تنفسح أمامي . إنني ظمأى ..

كدت أنسى أن أقول لك إنني لم أتمكن من انتزاع أحجار الياقوت الأزرق من علبتها لأن خالتي لم تعد تستودع المفاتيح غرفتها . ولقد استحال على كل مفتاح عالجت به الدرج أن يفتحه . لا تنهرني فلديّ سوار والدتي والسلسلة المرصعة ثم خاتمان — أظن أنهما قليلا القيمة لأنها لا تتحلى بهما — ولكنني

أعتقد أن السلسلة نفيسة حقاً . أما عن النقود .. فسأبذل جهدي ولكن يحسن بك أن تحصل على القدر الذي يمكنك الحصول عليه .

لك دعواتي كلها . إلى اللقاء .

صاحبتك

إلزا

« في ٢٢ من أكتوبر ، يوم مولدي الثاني والعشرين ، وليلة فراري » .

أفكر في جزع ، لو أن عليّ أن أؤلف رواية من أطراف هذه القصة فما أكبر العناء الذي قد ألقاه في ديباجة هذه الصفحات الأربع أو الخمس التي يقتضيها الإسهاب والتفصيل . فلما استعدت قراءة الخطاب ، وقلبت الأمر على وجوهه ، وقعت في حيرة شديدة .. كنت واجماً ساهماً كالوجوم الذي يعقب صدمة عنيفة . فلما أن بلغ أذني بعد ذلك خلال دبيب الدم وهو يجري في عروقي ، صدى جرس يدق ثم يضاعف دقه ، فكرت : هذا صدى الجرس الثاني الذي يؤذن بالغذاء ؛ كيف لم أسمع صوت الجرس الأول وأخرجت ساعتي فإذا بها الثانية عشرة ، فعدوت في الحال إلى الخارج وأنا أضم إلى صدري هذا الخطاب الملتهب ، وانطلقت حاسر الرأس أتلقى المطر المنهمر .

كان فلوش وزوجه قد أخذا يجزعان لغيابي ، فلما أ
أقبلت عليهما لاهثاً صاحا معاً .

ــ إنك مبلل الثياب تقطر ! .

وعارضا في أن يجلس أحد إلى الغداء حتى أغير ثيابي
فلما أن عدت بعد حين أخـذا يسألاني ، في تودد المحـ
ورعايته ، عما حدث لي . ورأيتني مضطراً إلى أن أروي لهـ
كيف أويت إلى المنزل لاجئاً من المطر وكيف لبثت أنتظر فيه عب
مهلة إلى أن يكف المطر . فشرع كلاهما يعتذر عن رداءة الجـ
وعن الحالة السيئة التي آلت إليها المسالك ، كما أخذا يعتذران عـ
أن الجرس الثاني قد دق قبل موعده وعن أن الجرس الأول لم يد
إلا دقاً ضعيفاً على غير المألوف ... ومضت الآنسة فردو
لتحضر لي شالاً فلما عادت بعد حين رجاني كلا الزوجين أ
أتشح به لأن العرق كان لا يزال يتصبب مني وقد أتعرض للبرد
وكان الأب يراقبني في صمت وقد أطبق شفتيه عابساً ، وكنـ
مبلبل الفكر بحيث أحسست ، وهو يرمقني بعينه المستقصية
بأن الدم يصعد إلى وجنتيّ ، ورأيتني أضطرب كطفل أذنب
وفكرت : ومع ذلك ينبغي أن أستأنسه ، فلو أردت أن أعرف شيـ
مما أريده فلن أعرفه إلا منه ؛ وهو وحده يستطيع أن يهديني إ

مسالك ومنعطفات هذه القصة الغامضة التي أضحى الحب فيها رائدي فضلاً عن الفضول .

وبعد أن تناولنا القهوة قدمت إليه سيجارة اتخذها ذريعة للحديث ، وخرجنا للتدخين في السقيفة تحرجاً من إزعاج البارونة بدخاننا . وخاطبني على الأثر في لهجة ساخرة :

— حسبتك لا تقيم بيننا أكثر من ثمانية أيام ! .

— كانت هذه نيتي لولا تلطف مضيفيّ .

— أو قد انتهيت من أوراق السيد فلوش ؟ .

— نعم ، ولكني وجدت ما يشغلني أكثر مما شغلتني هذه الأوراق :

وانتظرت أن يسألني عما وجدت ، ولكنه ظل صامتاً . فلما عيل صبري عاودت القول :

— إنك تعرف بلا ريب خفايا هذا القصر كلها .

ففتح عينيه ما وسعه ، وقطب جبينه ، وتكلف السذاجة والبله . قلت :

— لِمَ لا تقيم في القصر أمُّ تلميذك ، أو الآنسة دي سان أوريول لتعنى بولدها الأشوه ووالديها الشيخين ؟ .

فألقى سيجارته ، وبسط راحتيه ووضعهما على جانبي وجهه على شكل قوسين ، وتكلف أشد الدهشة ، ثم قال :

ــ لعل لديَّ من الأعمال ما يستبقيها بعيداً .. يا له من سؤال فيه الإيعاز والتحايل .

ــ حسناً ، أتريد سؤالاً أدق ؟ إذن فاسمع : ماذا فعلت السيدة أو الآنسة دي سان أوريول ، أم تلميذك ، ليلة ٢٢ أكتوبر ، ليلة أن همَّ عشيقها باختطافها ؟ .

فوضع قبضتيه على جانبيه وقال :

ــ مرحى ! مرحى يا سيدي الروائيّ ! .

وكنت قد انسقت عن زهو وضعف إلى الإفضاء له بطموحات نفسي وأنا أحذرك من الانسياق إلى التصريح بطموحات نفسك إلا لمن كنت واثقاً أشد الوثوق من وده ؛ فمذ عرف الأب طموحاتي هذه، انقلب يمازحني ويتهكم مني في أسلوب كنت لا أطيقه ــ قال :

ــ ألا ترى أنك تتعجل في تحرياتك قليلاً ؟ أفي وسعي أن أسألك بدوري كيف انتهت إليك هذه البيانات الدقيقة ؟ .

ــ ذلك أن الخطاب الذي كتبتْه إيزابيل دي سان أوريول إلى عشيقها في ذلك اليوم لم يتسلمه هو وإنما تسلمته أنا .

حقاً كان لا بد له من أن يعترف بخطري ويحسب حسابي ، وكان في تلك اللحظة قد أبصر لوثة صغيرة على كم

ثوبه ، شرع يحكها بطرف ظفره وبدا لي أنه أخذ ينزل من عليائه إذ قال :

ـــ إنني لأعجب ... ما أن يظن أحدكم أنه خلق لأن يكون روائياً حتى يخوّل لنفسه كل حق ؛ ولو أن شخصاً غيرك عرض له ما عرض لك ما استباح لنفسه ، الاطلاع على خطاب لم يوجه إليه إلا بعد تفكير طويل .

ـــ بل أملي يا سيدي أنه لن يستبيح لنفسه أن يطلع عليه بتاتاً .

وسددت إليه طرفي ، ولكنه ظل خافض البصر لا يفتأ يحك كمه وقال :

ـــ لا أحسب أن أحداً أعطاك إياه لتقرأه .

ـــ إن هذا الخطاب وقع بين يدي مصادفة ، وكان مظروفاً بالياً رثاً ، ممزقاً لا أثر لأية كتابة عليه ، فلما أن فضضته وجدت فيه خطاب الآنسة دي سان أوريول ؛ ولكن الى من كان هذا الخطاب موجهاً ؟ ... هلمّ ، عونك يا سيدي الأب ! من كان من أربعة عشر عاماً عشيق الآنسة دي سان أوريول ؟ .

وكان الأب قد نهض وأخذ يسير طولاً وعرضاً مقارباً خطوه ، مطرقاً رأسه ، شابكاً يديه خلف ظهره . فلما أن عاد

ومر خلف مقعدي وقف وشعرت به بغتة وقد حط راحتيه على كتفي ، وقال :

ـــ أرني هذا الخطاب ! .

ـــ أتفضي إلي بما عندك ؟ .

وشعرت براحتين عن ضيق وفراغ صبر تنقبضان وترجفان وقال :

ـــ لا تشترط ، أرني هذا الخطاب . أرجوك .

فقلت ، وأنا أحاول الإفلات من قبضته .

ـــ دعني أذهب لإحضاره .

ـــ إنه هنا في جيبك .

وحدج موضع الخطاب كأن ثوبي كان يشف عما تحته ، ففكرت : أتراه يهم بتفتيشي ؟ ...

وكنت أجلس بحيث كان يتعذر علي أن أدافع عن نفسي لو هوجمت فما بالك لو استعدى علي عملاق على شاكلته أشد مني وأقوى ؛ ثم كيف بي أحمله بعد ذلك على الكلام . والتفت إليه فإذا بوجهه يكاد يقع على وجهي ، وشاهدته وجهاً متفنخ الأوداج ارتسم على جبهته عرقان ضخمان وفي أسفل عينيه ورم بغيض ، فتكلفت الضحك مخافة أن يفسد الأمر بيننا، وقلت :

ـــ حقاً يا سيدي الأب ، إنك مثلي مصاب بداء الفضول .

فخل عني ، ونهضت لفوري وأنا أتكلف الإنصراف .

ـــ لو أنك لم تصطنع معي أساليب قطاع الطرق لأريتك الخطاب .

ثم أمسكت ذراعه وأضفت .

ـــ ولكن تعال بنا إلى مقربة من قاعة الاستقبال حتى يتيسر لي أن أستنجد .

وكنت أحاول وسعي أن أحتفظ بلهجتي المداعبة ، ولكن قلبي كان يضطرب اضطراباً شديداً .

وأخرجت الخطاب من جيبي ثم قلت :

ـــ دونك الكتاب ، إقرأه ، إقرأه أمامي ، فإنني شديد التوق إلى أن أرى بأي عين يطالع رجل الدين خطاب غرام .

غير أنه عاد فتملك نفسه ، ولم يدع أية سمة من الإنفعال ترتسم على وجهه سوى ذبذبة بدت على عضلة صغيرة في خده كان لا سبيل إلى كبتها وقرأ الخطاب وكأنه يحتسيه ثم شمه وكأنه يستنشقه وقطب جبينه تقطيباً شديداً حتى لتحسب أن عينيه كانتا غاضبتين على نهم أنفه ، ثم طوى الخطاب وأعاده إلي قائلاً في لهجة المتفيهق .

— في ذلك اليوم عينه أي في ٢٢ من أكتوبر قتل الفيكونت دي جنفر فيل ، في حادث وقع له وهو خارج للصيد . فقلت :

—إني لأرتعش خوفاً مما تقول (وقد أخذ عقلي للحال يرسم صورة مأساة مفزعة) فلتعرف إذن أني وجدت هذا الخطاب وراء أخشاب القاعة التي وضع فيها الخطاب ليصل إليه .

وأعلمني الأب بعد ذلك أن كبير أبناء آل جنفر فيل ، وأملاكهم تتاخم أملاك سان أوربول ، وجد في ذلك اليوم صريعاً عند أحد الحواجز ، وفيما يظهر كان يهم باجتياز الحاجز حين أتى بحركة غير موفقة انطلق على أثرها عيار من بندقيته فأرداه قتيلاً ؛ ولكن خرطوش العيار لم يوجد في ماسورة البندقية . ولم يستطع أحد أن يدلي بأي بيان آخر ، فالفتى خرج وحده ولم يره أحد . ولم يعرف الحادث إلا غداة ذلك المساء حين رأى الناس كلباً من كلاب الكارفورش يلعق في بركة من الدماء قريباً من المنزل . واستطرد الأب قائلاً :

— لم أكن حينئذ قد حضرت إلى الكارفورش ، ولكن البيانات التي جمعتها فيما بعد تطرح الشبهة كلها على جراسيا ، فلا ريب في أنه اكتشف ما بين سيدته والفيكونت من علائق ، ولعله علم أيضاً بعزمها على القرار (وهو عزم لم أعرفه حتى

اطلعت على هذا الخطاب) . وجراسيان خادم بليد العقل ، شكس ، لا يحجم عن ارتكاب أي عمل إن رأى فيه سبيلاً إلى رد الشر عن سادته .

ـــ وكيف لم يقبض عليه ؟ .

ـــ لم يكن لأحد مصلحة في اتهامه ، وكان آل سان أوربول وآل جنفر فيل يخشيان ما قد يثار حول هذا الحادث المزعج من ضجة ، ولا سيما أن الآنسة دي سان أوربول وضعت بعد بضعة أشهر من هذا الحادث طفلاً شقياً . وينسب الناس عاهة كازمير إلى ما بذلته أمه من جهود للخلاص من حملها ، ولكن الله يعلمنا أنه كثيراً ما يوقع عقابه بالأبناء . تعال معي الى النزل فإنني أريد أن أرى الموضع الذي عثرت فيه على الخطاب .

وكانت السماء قد صفت وانحسرت عنها غيومها ، فمضينا معاً إلى النزل .

وانقضى ذهابنا دون شائبة . كان الأب قد تأبط ذراعي ، فسرنا في خطوات متعادلة نتحدث من غير صدام ولكن الأمر فسد بيننا في عودتنا وانتهى إلى الجفاء ذلك أن غريب ما وقع لنا كان قد هز مشاعرنا وأثر في كل منا تأثيراً متبايناً ؛ أما أنا فكنت قد نسيت أن الذي يحدثني رجل من رجال الدين لما رأيت ما يبديه من ضروب التلطف ، وشرعت أكلمه كما لو كان انساناً

عادياً . وإليك ، فيما أظن ، كيف بدأ الجفاء بيننا . كنت أقول له .

ـــ من يروي لنا ما فعلته الآنسة دي سان أوريول في تلك الليلة ؟ فلا ريب عندي في أن مصرع عشيقها الكونت لم يبلغها إلا غداة مقتله . هل انتظرته في الحديقة ؟ إلى متى انتظرته ؟ وماذا تبادر إلى ذهنها ... ماذا خالج فؤادها لما رأته لا يأتي ؟ .

وظل الأب صامتاً لا يتأثر لمناجاتي ، فعدت إلى القول :

ـــ تمثل هذه الفتاة الهيفاء وقلبها بأشجار الهوى مثقل محزون ، وروحها من شدة الضجر تكاد تزهق ، إيزابيل ... تلك الحبيبة المولهة فهمس الأب :

ـــ بل تلك الفاجرة ..

فقلت ، كأنني لم أسمع ما همس به ، معتزماً مع ذلك أن أدفعه لو هاجمها مرة أخرى :

ـــ فكر في هذا الأمل الذي كان يملأ فؤادها ، ثم في هذا اليأس الذي ...

فقاطعني في جفاء :

ـــ وما فائدة التفكير في هذا كله ؟ ليس لنا أن نعرف عن الحوادث أكثر من مفادها .

ــ ولكن مفادها يختلف بحسب كنه معرفتنا بملابساتها أو بزيادته .

ــ ماذا تعني ؟ .

أعني أنه في أغلب الأحيان قد تكون معرفتك بالحادث سطحية لا تطابق الواقع ، ولو أنك تقصيت ملابساته لاستخلصت شيئاً يختلف عما استخلصته ؛ وعلى ذلك يجمل بنا النظر والتحقيق قبل استخلاص النتيجة .

ــ يا صاحبي العزيز ، أعيذك من التحقيق والفضول فإن بريق التمرد والثورة تكمن فيهما ؛ عسى أن يهديك الرجل العظيم الذي اتخذته مثالاً إلى ...

ــ أتعني الرجل الذي أكتب عنه رسالتي ؟ .

ــ يا لك من جَدِلٍ لحوح ! أبهذه الروح تقبل ...

ــ ولكن يا سيدي الأب أخبرني : أليس فضولي هذا هو نفس الفضول الذي حثك على مرافقتي الآن ، والذي دفعك من حين إلى ذلك الطلل البالي تسائله ؟ ثم أليس هو الذي ساقك شيئاً فشيئاً إلى الإلمام بأطراف هذه القصة التي رويتها لي ؟ .

وكان قد أخذ يخب ويوسع خطاه ، فقال في صوت قاطع وهو يضرب الأرض بعصاه في نفاذ صبر .

ــ أنا لا أقف عند الحوادث كما تقف متى عرفتها ، ولا

أبحث مثلما تبحث عن تفسير لها ثم عن تفسير لتفسيرها . وهذه
الحوادث المشؤومة التي نقلتها إليك خليقة بأن تعلمني ، لو كنت
لا أزال في حاجة إلى العلم ، بأن معصية الجسد من أكبر
المعاصي وإني لأرى في الحوادث نفسها القضاء الفصل على
الطلاق وغيره من الحيل التي ابتدعها الإنسان ليتدارك نتائج ما
اقترف واكتفي بهذا القول أليس كذلك ! .

ــ بل أرى أن هذا لا يكفيني . فالحادث نفسه لا يعني
شيئاً عندي ما لم ألم بأسبابه ودوافعه . ويعنيني في هذا الحادث
نفسه أن ألم بما خفي من حياة أيزابيل دي سان أوريول وأن أعرف
تلك المسالك الخفية العاطرة ...

حذار يا فتى فانك متيم بها ! .

ــ هذا ما كنت أتوقعه ألأنني لا أكتفي بالمظهر ، ألأنني
لا أنخدع بقول أو إشارة ... أواثق أنت من أنك لا تحكم على
هذه المرأة حكماً يتأثر بالظنة ؟ .

ــ إنها فاجرة .

فألهب الغضب جبيني ، ولم أقدر على كظمه إلا في عناء
عظيم . فقلت :

ــ يا سيدي الأب ، إن هذه الألفاظ التي ينطق بها

لسانك لتدهشني منك . وأظن أن السيد المسيح يعلمنا أن العفو خير من العقاب .

ــ نعم ، ولكن بين العفو والرضا فرق يسير .

ــ لو أن المسيح قضى في أمرها ما حكم عليها بما حكمت :

ــ إنك لا تدري عن هذا الأمر شيئاً ، ثم إن الله سبحانه وتعالى ، المنزه عن الكبائر والصغائر ، في قدرته أن يكون أكثر تسامحاً من أولئك الذين ... أعني أننا نحن العصاة ليس من شأننا أن نلتمس أعذاراً للمعصية ، وليس علينا إلا أن ندير أنظارنا عنها في استنكار .

ــ نعم ، بعد أن نستنشق عبيرها كم استنشقت الخطاب .

ــ إنك لوقح .

وانسل فجأة عن الطريق ومضى مسرعاً إلى مجازة ضيقة وهو يرميني على غرار البارت[1] ، بعبارات جارحة لم أسمع منها إلا هذه الكلمات : تعليم حديث ... سربولي .. زنديق ... ! .

فلما أن التقينا على العشاء رأيته لا يزال عابس الوجه ،

(١) البارث جماعة من اليونان مهروا في رمي أعدائهم بالسهام وهم يولون الأدبار .

ولكن حين غادرنا المائدة أقبل مبتسماً ، وبسط يده إلي فتناولتها وابتسمت .

وبدت لي هذه الليلة تفوق سابقاتها في سأمها الرتيب . كان البارون يتدثر في هدوء إلى جانب النار ، وكان السيد فلوش والأب يتناقلان النرد صامتين ؛ أما كازمير فقد كان واضعاً رأسه بين يديه ، يمسح من حين لآخر كتابه الذي كان يسيل عليه اللعاب . وأما أنا فلم أكن أعير لعبة البزيج إلا انتباهاً يسيراً يسمح لشريكتي بألا تخسر خسارة بالغة مخزية . ولاحظت مدام فلوش سأمي فانزعجت له وأخذت تبذل جهدها لتزيد اللعب حمية وتنفخ فيه الحياة :

ـــ هلمي يا أولامب ! إليك اللعب الآن . هل ألم بك النوم ؟ .

لا ، لم يكن النوم ما ألم بقومي ، وإنما هو الموت الذي كان يتسرب إليهم خفية فيجمد دماءهم ؛ بل لقد شعرت أنا نفسي بأن صدري أخذ يضيق واستولت علي الهواجس وتملكني الجزع . وفكرت في إيزابيل فإذا بي أهتف : أيها الربيع ! أيتها الرياح السمحة الضارية في أطناب الفضاء لن ينتهي عطر نفحاتك ولن يصل عذب ألحانك أبداً إلى هذا المكان ! وأنت

يا إيزابيل ، من أي قبر أفلت ! وعلى أية حياة أقبلت ؟ إني أتمثلك في ضوء ذلك المصباح الصافي وأنت تضعين جبينك الشاحب المعنى على رقيق بنانك ، وقد تدلت خصلة سوداء على معصمك تداعبه . ما لطرفك يمتد إلى مدار الفلك ! أي ضجر شديد فل فيك الجسد والنفس ؟ ضجر تحكيه زفرات شاكيات لن تبلغ أبداً مسامع قومك ..... وأفلت مني قسراً زفير شديد أشبه بالتثاؤب أو النشيج ، فألقت مدام فلوش آخر ورقة في يدها وصاحت :

— أرى أن السيد لاكاز يرغب في النوم .

يا للمرأة المسكينة ! .

ألمَّ بي في تلك الليلة حلم غفل أبله ، كانت بدايته تتمة الحقيقة الواقعة .

رأيتني ، والليلة لم تنته بعد ، أجلس إلى جانب مضيفي في قاعة الاستقبال ، وإذا بجماعة ، كان عددها يزداد دون انقطاع ، تنضم إلى القوم — دون أن أرى مع ذلك أحداً يدخل القاعة . وتعرفت على كازمير جالساً إلى المائدة أمام لعبة من الألعاب ، وأمامه ثلاثة أو أربعة رجال عاكفين على اللعب . كان القوم يتحدثون همساً بحيث تعذر علي أن أسمع شيئاً مما كانوا يهمسون . ولكنني أدركت أن كل واحد منهم كان يسر إلى جاره

بشيء يثير العجب فيعجب الجار له كانت الأبصار كلها شاخصة إلى شيء معين قريب من كازمير ، وإذا بي أرى فجأة إيزابيل دي سان أوريول جالسة إلى المائدة (كيف بي لم أرها من قبل؟) . كانت وحدها في وسط هذا الجمع الذي يرتدي ثياباً قاتمة ، ترتدي ثوباً ابيض . ورأيتها أول ما وقع بصري عليها فائقة الظرف شبيهة بصورتها الصغيرة ، ولكن ما أن دققت فيها النظر حتى راعني سكون محياها وجمود عينيها . فأدركت على الفور السر الذي كان يتناقله القوم همساً : لم يكن ذلك الجسم جسم إيزابيل الحقيقية ولكنه جسم دمية على صورتها كانت توضع مكانها حين تغيبها .

وبدت لي هذه الدمية عندئذ أبشع ما تكون ، وشعرت بضيق يتملكني لما أن تحققت من مظهر غبائها الدعيّ . كانت ساكنة سكوناً تاماً لا حراك بها ، ولكنني وأنا أحقق النظر فيها رأيتها تميل رويداً رويداً إلى جانب حتى كادت أن تهوي إلى الأرض ؛ وإذا بالآنسة أولامب تنطلق إلى طرف القاعة وتنحني وترفع كساء المقعد الذي تجلس عليه الدمية ثم تدير لولباً خلفها أحدث صريراً مزعجاً ؛ فإذا بالدمية تستقيم وتحرك يديها تحريكاً آلياً مضحكاً . فلما أن حانت ساعة الانصراف نهض الجميع

وظلت إيزابيل الزيفاء جالسة مكانها . وكان كل فرد عند انصرافه يمضي إليها ويحني رأسه محيياً ثم ينصرف إلا البارون فإنه دنا منها غير حافل ، وقبض بيديه على شعرها المستعار ، ثم وضع على هامتها قبلتين داويتين بينما كان يغرق في الضحك . فلما أن غادر القوم جميعاً قاعة الاستقبال ، وكنت أراهم جمعاً لا حصر له ، ولما أن عم الظلام ، شاهدت نعم ومن عجب أن أشاهد في الظلام ـــ شاهدت الدمية وقد امتقع وجهها واضطرب جسمها وإذا بها تتحرك وتحيا . ورأيتها تحاول النهوض ، وتبينتها فإذا هي الآنسة دي سان أوربول نفسها . وأقبلت عليّ في سكون ثم على حين غرة شعرت بذراعيها الدافئتين تطوقان جسدي . واستيقظت على نضيح أنفاسها وهي تقول : «إن كنت لقومي غائبة فإنني لك حاضرة» .

لست بالمتهيب أو بالذي تسيطر عليه الأوهام ، على أنني ما أشعلت شمعتي بعد ذلك إلا لأدفع عن بصري وأبعد عن خاطري هذا الطيف الملم ولم أبلغ ما أردت إلا بعد عناء عظيم ومع ذلك ألفيتني بالرغم مني أرهف سمعي لأقل صوت متسائلاً : لعلها هنا لم تمض ! وحاولت أن أصرف ذهني عنها بالقراءة ولكن الذهن كان لا ينصرف إلى شيء سواها ، وظل الفكر مشغولاً بها حين عاودني النوم إلى الصباح .

— ٦ —

على هذه الصورة هبطت هذه الحماسة التي لازمت فضولي وتيمي . لم يكن لي من سبيل إلى إرجاء رحيلي بعد أن أنبأت مضيفي بعزمي على الرحيل مرة ثم مرة . كان ذلك اليوم إذن آخر يوم أقضيه في الكارفورش وفي ذاك اليوم ...

نحن على العشاء في انتظار البريد الذي كانت دلفين زوج جراسيان تتسلمه من الساعي ؛ فتأتي به عادة قبل أن تقدم الفاكهة بقليل وكانت مدام فلوش كما ذكرت من قبل تتناول فيها الخطابات ثم توزعها على الحاضرين ، ثم تقدم إلى السيد فلوش صحيفة جورنال دي ديبا فيحتجب خلفها إلى أن نغادر المائدة . في ذاك اليوم أفلت من ربطة الخطابات مظروف بنفسجي اللون علق بعصبة الجريدة ثم طار على المائدة واستقر على مقربة من طبق مدام فلوش . وفي لمح البصر تعرفت على ذلك الخط

العريض المختل الذي اضطرب له قلبي بالأمس اضطراباً شديداً .
وكذلك فيما يظهر ، تعرفت عليه مدام فلوش فحاولت في حركة خاطفة أن تحجب المظروف بطبقها ، ولكن الطبق اصطدم بقدح فيه نبيذ فتحطم القدح وسال النبيذ على المفرش وانتشر . وأثار هذا الحادث لغطاً شديداً فانتهزت مدام فلوش ما عم من اضطراب وأخفت المظروف في قفازها ، ثم قالت تعتذر في شيء من سذاجة الصبية :

لقد أردت أن أقتل عنكباً .

(وهي لا تميز بين الحشرات وتطلق لفظ العناكب على كل حشرة تتسرب من سلة الفاكهة) .

ونهضت مدام دي سان أوريول من مكانها وألقت على المائدة فوطتها دون طيّ ، ثم قالت أو صاحت في صوت حاد :

— وإني أراهن يا أختي أنك قد أخطأت الإصابة . تعالي إلى قاعة الإستقبال . معذرة أيها السادة ، لقد عاد بطني يمغص ويقطع .

وانتهى العشاء في صمت ، وكأن السيد فلوش لم ير شيئاً ، وكأن السيد دي سان أوريول لم يفهم شيئاً . أما الآنسة فردور والأب فقد ظل كلاهما ساهم العين لا يفارق بصره الطبق

الذي أمامه . ولو أن كازمير لم يأخذ في المخاط لرأيته يأخذ في النحيب .

وكان الجو يكاد يكون حاراً . وأحضرت القهوة إلى تلك الشرفة الصغيرة التي تتألف من بسطة الدرج المؤدي إلى القاعة : كنت وحدي أتناول القهوة مع الأب والآنسة فردور ، وسمعنا ضجة أصوات صادرة من القاعة التي احتبست فيها المرأتان ؛ ثم ساد السكون وفهمنا أنهما قد انصرفتا .

وأذكر ، لو صدقت الذاكرة ، مناوشة بين «شجرة الزان ذات ورق البقدونس» حدثت في ذلك الحين . وكانت الآنسة فردور والأب يعيشان في حرب لا تمل ولا تستقر . لم تكن الحرب بينهما جدية فلم يكن للأب مأرب سوى الدعابة والمزاح ؛ ولكن الآنسة لم تكن تغتاظ لشيء اغتياظها للهجة الأب الساخرة التي كان يتكلفها في جداله معها . كانت حينئذ تكشف له عن موطن الطعان فلا يلبث الأب أن يرميها في مطعنها . وكان لا يكاد ينقضي يوم إلا وتحدث بينهما مناوشة من هذا النوع وكان الأب يزعم أن صاحبته العانس في حاجة إلى هذه المناوشات لرعاية صحتها ، ويذهب بها كل مذهب فتتبعه طائعة منقادة ، وأكبر الظن أنه لم يكن يتعمد هذه المناوشات عن

شراسة خلق أو غلظة قلب غير أنه يبدي في تحديها شيئاً من الخبث . وكانت هذه المناوشات تملأ شيئاً من وقتها وتدخل على حياتهما بعض الفكاهة والتسلية . وكان ما جرى أثناء تناولنا الفاكهة قد أثار أعصابنا ، وكنت أحاول أن أجد ما أصرف به أذهاننا عنه . وفيما كان الأب يصب القهوة عثرت يداي وأنا أضعها في جيبي بعشب من أوراق شجرة طريفة النوع كانت تنمو بجانب الباب الحديدي ، وكنت قد اقتطفت هذا العشب في الصباح لأسأل الآنسة عن اسم شجرتها ، لا عن هوى أو فضول وإنما لعلمي أنها تشعر بفرح وزهو كلما دعيت إلى إظهار علمها .

ذلك أنها كانت منصرفة إلى علم النبات ، تخرج في بعض الأيام لجمع الأعشاب حاملة على كتفيها القويتين علبة خضراء تجعلها غريبة الشكل فتقضي الوقت الذي تسمح به أشغال المنزل عاكفة على مجموعة أعشابها تفحصها بالمجهر ...

وتناولت الآنسة أولامب العشب من يدي ، وقالت دون أدنى تردد :

ـــ إن هذه الأعشاب من أعشاب شجرة الزان ذات أوراق البقدونس .

— فقلت : يا له من اسم طريف ! ومع ذلك أظن أنه لا علاقة لهذه الأوراق المدبية ...

وكان الأب قد أخذ يبتسم في خبث ، فقال وكأنه يلقي ما يلقي غير متعمد :

— هذا هو الإسم الذي يطلقونه في الكارفورش على شجرة الفلاجوس برسيافوليا fagus per sigolia .

فانتفضت الآنسة وقالت :

ما كنت أحسب أنك مطلع في علم النبات إلى هذا الحد ! .

— لا ، ولكنني أحيط باللاتينية بعض الإحاطة .

ثم مال إلي وقال :

— لا ذنب لسيداتنا فيما يقعن فيه من لبس . إن لفظ برسيكوس perecus ، يا آنستي العزيزة ، معناه باللاتينية الخوخ لا البقدونس ، وهذه الشجرة التي أشار السيد لاكاز إلى أوراقها المدبية إنما هي شجرة الزان ذات ورق الخوخ .

وكان وجه الآنسة أولامب قد أحمر حتى صار قرمزياً . وكان ما تكلفه الأب من هدوء في خطابها قد عمل على إفساد مزاجها ، ومع ذلك استطاعت أن تقول له ، دون أن تنظر إليه :

ـــ إن علم النبات الصحيح لا يعني بالشاذ أو المسيخ .
وأفرغت قدحها دفعة ثم ولّت .

وكان الأب قد زم فاه زماً شديداً حتى صار كمؤخرة الدجاجة ، وأخذ يطلق منه ضحكاً متقطعاً له ضجة عجيبة كأنه خارج من مؤخرة الدجاجة أيضاً .

وبذلت جهداً كيلا أضحك ، ثم سألته :

ـــ أو تكون غليظ القلب ! سيدي الأب ؟ .

ـــ لا ، لا ... ولكن الآنسة ينقصها التدريب العقلي وهي لذلك في حاجة إلى ما يلهب الدم في دمها . وهي بطبعها ميالة إلى المشاكسة فإنها إن انقضى يومان أو ثلاثة دون أن أنازلها دعتني هي للنزال ، هذا وما عندنا في الكارفورش من سبل التسلية واللهو ضئيل محدود ...

وإذ ذاك شرع كلانا يفكر في هذا الخطاب، الذي أحدث ما أحدث أثناء تناولنا الغداء ، دون أن يتكلم أحدنا عنه . ثم سألته بعد حين .

ـــ أو قد تعرفت على ذلك الخط ؟ .

ـــ فقال : إن أمثال هذا الخطاب ترد إلى الكارفورش

مرتين في السنة وذلك إما قبل هذا الحين بقليل وإما بعده ، وهي ترد عادة بعد موعد سداد إيجار المزرعة فتنبيء بحضورها .

فصحت : أهي حاضرة ؟ .

ـــ قال : هوى ! هوى ! إنك لن تراها .

ـــ ولِمَ لن أستطيع أن أراها ؟ .

ـــ لأنها تحضر في منتصف الليل ، ثم ترحل بعد ذلك تواً ثم هي تتهرب من الأنظار ، ثم ... حذار من جراسيا .

وكان يتفرس في وجهي ولكنني لبثت ثابت الجأش ، فعاد يقول في لهجة محتدمة :

ـــ أرى أنك لن تحفل بما ذكرت لك ، في مظهرك ؛ ولكني حذرتك . اذهب وافعل ما بدا لك ، ولكن تعال غداً وحدثني .

وانصرف دون أن أستطيع القول ؛ أكان يسعى إلى كبح فضولي ، أم ، على النقيض ، كان يروق له أن يثير فيّ الفضول .

وظل فكري إلى المساء لا شاغل له سوى انتظارها ، وإني لأعدل عن وصف اضطرابي . أكان من الممكن حقاً أن أهوى إيزابيل ؟ لا بلا ريب ؛ ولكنني ، وقد ذهبت في عبثي مذهباً هز مشاعري كلها وبلغ مأخذ القلب ، كان طبيعياً أن أتوهم أني

متيم ؟ كيف بي لا أتوهم ذلك ، وقد لا قيت في عبثي وفضولي كل هذه العناصر التي تلازم الهوى ، أعني الشوق والحماسة وتبلبل الفكر وقلة الصبر ؟ هذا ولم تكن لعبارات الأب ، التي فاه بها وهو ينصرف ، من أثر في سوى أن تزيد من حماستي . وفكرت : لا شيء يستطيع جراسيان أن يفعل بي ! لا شيء يستطيع أن يقف بيني وبين هواي ، لا ، لا السيف ولا الحديد ولا النار ! .

وكان من الجلي ، أن أمراً ما يدبر ويستعدون له في ذلك المساء فإن أحداً لم يقترح أن يدار اللعب ، بل ما كاد العشاء ينتهي حتى أخذت مدام دي سان أوريول تتوجع من مغص بطنها ، ثم انصرفت دون أن تتكلف ما تتكلفه عادة ، في حين مضت الآنسة فردور لتعد لها شراباً ساخناً . وبعد قليل التفتت مدام فلوش إلى كازمير وأمرته بالذهاب إلى فراشه ، وما إن إنصرف الصبي حتى خاطبتني قائلة :

ـــ أرى السيد لاكاز يود لو ينصرف أيضاً ، إني أرى النوم يثقل أجفانه .

فلما لم أسرع بتلبية دعوتها قالت :

ـــ لا أحسب أن أحداً منا سيطيل سهرته الليلة ...

ونهضت الآنسة فردور لتشعل الشمعدان فاقتفيت أثرها أنا والأب وفيما أنا منصرف رأيت مدام فلوش تميل على أذن زوجها ، وكان إلى جانب النار في مقعده ينعس ، فنهض تواً وجذب البارون من ذراعه فانقاد له كأنه يدري ما يبغيه . ولما بلغنا منبسط درج الطابق الأول وقف كل منا يستعد للإنصراف فابتسم الأب ابتسامة ساخرة وقال :

ـــ طاب نومك ! .

وأغلقت باب حجرتي ثم لبثت أترقب ؛ لم تكن الساعة دقت التاسعة فسمعت مدام فلوش تصعد ثم تلتها الآنسة فردور . ودارت على منبسط الدرج مشادة حامية بين مدام فلوش ومدام دي سان أوريول ، وكانت هذه قد خرجت من حجرتها ؛ ولم أتمكن من سماع ما دار بينهما ولكنني سمعت بعد قليل صوت أبواب تغلق في عنف ثم ساد السكون .

فاستلقيت على فراشي أتدبر أمري . فكرت في هذه الإبتسامة الساخرة التي حباني بها الأب من حين وهو يودعني ، وودت لو أعلم أكان من جهته قد انصرف إلى النوم أم أنه ترك الحبل على الغارب لفضوله الذي نفاه عن نفسه من حين . وكان الأب يقيم في طرف القصر المقابل فلم يكن ثمة سبب معقول

يدعوني إلى الذهاب إليه. ومع ذلك فكرت: من منا يكون أشد حيرة وأكثر حزناً لو باغت أحدنا صاحبه الآن في دهليز القصر ؟.. وفيما أنا فيه من إعمال الفكر حدث لي حادث مخجل أستحي من ذكره. لقد غلب الكرى على أجفاني فنمت.

نعم، نمت واستغرقت في نوم عميق فقد كنت من طول الانتظار متعباً متهيج الأعصاب، فضلاً عن أني قضيت بالأمس ليلة مجهدة أجهدت فيها القلب والجسد بالسهاد.

وأيقظني زفير الشمعة وهي تشرف على الإنطفاء، أو لعل ما أيقظني رجة خفيفة أحسست بها إحساساً غامضاً أثناء نومي. لا شك في أن أحداً مشى في الدهليز، فاستويت في فراشي. وانطفأت شمعتي هذه اللحظة فلبثت حيناً في الظلام حيران لا أهتدي. ولم يكن معي إلا بضعة عيدان من الثقاب أعددتها لأستنير بها، فأشعلت عوداً منها لأتبين الوقت في ساعتي، وكانت الساعة منتصف الثانية عشرة! أرهفت أذني ... ولكن ما من صوت آتاني، فاتجهت إلى الباب أتحسه وفتحته.

لا، لم أكن مضطرب القلب، بل كنت أشعر بأني خفيف الجسم نشط الحركة مطمئن النفس حديد الفؤاد مقدام.

ورأيت في طرف الدهليز نافذة واسعة كان الضوء الذي ينصب منها يبلغني ، لا سوياً كضوء الليالي الصافية وإنما خفاقاً مضطرباً ، حيناً يبدو وحيناً يغيب ، فقد كانت السماء تمطر والريح تسوق أمام القمر قطيعاً عظيماً من السحب . كنت قد خلعت نعلي وتقدمت خافت الخطو لم أكن في حاجة إلى أن أدقق النظر كيما أبلغ المكان الذي أعددته في الصباح مرصداً لاستكشافي وهذا المكان حجرة مهجورة تقع إلى جوار حجرة مدام فلوش حيث كانت المداولة تجري ، فيما يظهر . وكان السيد فلوش يقيم في هذه الحجرة من قبل ولكنه هجرها مفضلاً جوار كتبه . كنت قد رأيت الباب الذي يؤدي إليها قد مال قليلاً حين أغلقت مزلاجه لآمن المباغتة فتحققت من أنني أستطيع أن أطالع بعين من أعلى خلل الباب . وكان علي حتى أصل إلى ذلك الخلل أن أرتقي خزانة حديدية فما كان مني إلا أن دفعتها إلى جوار الباب .

وكنت أرى الآن بصيصاً يتسرب من هذا الخلل وينعكس على سقف الحجرة الأبيض فأتاح لي ضوؤه أن أهتدي . ألفيت كل شيء كما أعددته في الصباح فارتقيت الخزانة ومددت بصري في الحجرة المجاورة ...

في هذه الحجرة رأيت إيزابيل دي سان أوريول .

كانت ماثلة على خطوات مني جالسة على كرسي حديث الطراز دميم المنظر منخفض لا ظهر له ؛ فأثار وجوده ، في هذه الحجرة ذات المتاع القديم ، دهشتي ولا سيما أنني لم أره حين دخلت إليها مع كازمير حاملاً الأزهار ورأيت مدام فلوش غائصة في مقعد وثير ، بالقرب منها منضدة عليها مصباح يلقي ضوءاً خافتاً عليها وعلى إيزابيل . ولما كانت هذه تدير إلي ظهرها ، منحنية إلى أمام مستلقية على حجر خالتها ، لم أر وجهها أول ما أبصرتها ؛ ولكنها لم تلبث أن رفعته . كنت أتوقع أن أرى وجهاً عصفت به أحداث الدهر ، لكني مع ذلك لم أكد أتعرف على فتاة الصورة في هذا الوجه . لم تكن بلا ريب تقل حسناً عما كانت عليه في صورتها ، ولكن هذا الحسن قد أصبح من نوع دنيوي أدنى إلى حسن البشر وإن ذلك الطهر الملائكي الذي كان يزين محياها الجميل قد غاص وحل محله لين ورخاوة ، وانطبع على طرفي شفتيها تثن كأنها تتقزز لأمر تعافه نفسها في حين انها في صورتها مفترة الثغر . وكانت ترتدي معطفاً من معاطف السفر المصنوعة من المطاط ، من نوع دارج فيما يظهر . ولما كان المعطف مرفوعاً من جانب أتيح لي أن أرى من ثوبها البراق الأسود ، وقد تدلت عليه يد عارية هزيلة شاحبة تطوي بين بنانها منديلاً . وعلى رأسها كساء من الجوخ والريش المتألق ، وعلى

جانبي الكساء شريط من الحرير استرسلت خلفه خصلة حالكة السواد . كانت ، حين تخفض رأسها ، تعود فتحجب وجنتها فتحسبها وهي على هذه الحال في ثياب الحداد لولا شريط أخضر لامع يطوق جيدها . ولم تكن المرأتان تتبادلان حرفاً ، على أن إيزابيل كانت تمر بيمناها على ذراع مدام فلوش ثم على يدها ، ثم ضمتها إليها وأغرقتها بالقبلات .

ورأيت رأسها يهتز فترنحت خصلات شعرها وتمايلت كالأمواج ، تارة ذات اليمين وتارة ذات اليسار ، وقالت كأنها تردد عبارة قالتها من قبل :

ــ كل وسيلة ؛ نعم ، حاولت كل وسيلة أقسم لك أن ...

فقاطعتها العجوز ، وهي تضع يدها على جبينها ، قائلة :

ــ لا تقسمي بنيتي ، فإني أصدقك دون القسم .

وكانت كلا المرأتين تتكلمان في صوت خفيت كأنهما تخشيان أن يسمعهما أحد ...

واستوت العجوز في مكانها ، وأزاحت ابنة أختها في لطف ثم نهضت معتمدة على ذراعي مقعدها ، فنهضت الآنسة أيضاً ؛ وبينما كانت العجوز تتجه نحو المستودع الذي أخرج منه كازمير الصورة الصغيرة أول أمس ، خطت الآنسة في نفس

الإتجاه شطر مسند عليه مرآة كبيرة وقفت عندها . وبينما كانت العجوز تنقب في أحد الأدراج أبصرت الآنسة ، في المرآة ، شريطها الأخضر الذي يطوق جيدها ، فأسرعت بحله في خفة ، ثم لفته حول اصبعها ... وقبل أن تلتفت العجوز إليها كانت قد تكلفت الوضع الذي يوهم بإعمال الفكر والتأمل ، فإذا بها مسترخية اليدين مشبوكة الأصابع ساهمة العين أشبه بالحائرة ...

وحين همت مدام فلوش بالجلوس في مقعدها ، وقد أمسكت بيد حزمة مفاتيحها والأخرى بضع أوراق نقدية قليلة العدد أخرجتها من الدرج ، رأيت الباب الذي يواجهني يفتح على سعته ، وإذا بي لشدة دهشتي ، أكاد لا أملك نفسي عن الصياح : فقد وقفت البارونة في فرجة هذا الباب المفتوح ، مبهرجة الثياب ، حاسرة الجيد ، مخضبة الوجه ، على رأسها قبعة عظيمة الحجم أشبه بعمامة من الريش ، وفي يدها شمعدان ذو شعب ست أخذت تهزه هزاً شديداً . وكانت شموع الشمعدان المشتعلة كلها ترسل أضواء خفاقة على المرآتين بينما قطراتها تسيل على الأرض . ومضت العجوز إلى المسند ووضعت الشمعدان عليه فقد كان ظاهراً أن المجهود الذي بذلته أنهك قواها ؛ ثم عادت إلى فرجة الباب واتخذت ذلك الوضع الذي رأيتها عليه .

وتقدمت مرة أخرى في خطى متزنة وفي مظهر رصين خطير ، باسطة يداً محملة بخواتم بالغة الحجم حتى إذا بلغت وسط الغرفة وقفت وأشارت إلى ابنتها وقالت في صوت حاد يكاد لحدته أن ينفذ إلى الجدران :

ـــ إلى الوراء أيتها البنت العاقة . لن أستلين لعبراتك ، وشكاتك لن تصل إلى قلبي فإنك قد ضليت السبيل إليه إلى الأبد .

ألقت العجوز في صول سوي حاد رتيب النغم ، ومع ذلك شاهدت إيزابيل ترتمي على قدميها ، وتمسك بثوبها وتشد أطرافه فتكشفت قدما العجوز عن حذائين صغيرين من الحرير الأبيض الناصع ، وشرعت ابنتها تضرب بجبينها أرض الحجرة ، كانت في ذلك الموضع مكسوة ببساط . ولم تخفض مدام دي سان أوريول آونة ما بصرها إليها ، وظلت ترسل إلى الأمام نظرات حادة جافة أشبه بصوتها ، ثم استأنفت قائلة :

ـــ حسبك أن أنزلت بأبويك البؤس والشقاء ؛ أو تريدين أن تواصلي ...

وخانها صوتها ، فتلفتت إلى مدام فلوش ، وكانت قد انكمشت في مقعدها ترجف ، وقالت لها :

ـــ أما أنت يا أختاه ، لئن تغلب عليك الخور ... ـــ ثم

استدركت : لئن تغلب عليك خورك الأثيم فنزلت على رجائها وتوسلها ، ولو كان ذلك يمنحها قبلة أو أقل عطاء ، فوالله لأنصرفن انصرافاً لا رجعة فيه ولأستودعن الله ما ملكت يداي ولن ترين لي وجهاً ما حييت .

وخيّل إليّ أني أشاهد تمثيلية في أحد المسارح ، وتساءلت : لمن كانت تمثل هاتان المرأتان وكلتاهما لا تدري أن أحداً يشاهد تمثيلهما ؟ وبدت لي الآنسة مسرفة الحركة ، متكلفة الوضع مزيفة ، لا تقل في زيفها وتكلفها وإسرافها عن أمها ... وكنت أرى هذه الأم وجهاً لوجه بحيث كنت لا أشاهد إيزابيل إلا ظهراً . وهي جاثية على ركبتيها أشبه في جثوها بالراجية المتقربة ، وفيما أنا فيه من نظر أبصرت قدميها ، فرأيت قدمين احتذيتا حذاء من حرير أدكن علته طبقة من الوحل ، وشاهدت في أعلى ساقيها جوارب بيضاء ملوثة لونها بلا ريب كطرف ثوبها المبلل بالوحول لما أن رفع .. فأحسست بفؤادي ينخلع ، يدوي فيه ما تحكيه هذه الملابس التعسة من شقاء وبؤس ، دوياً أليماً شديداً غلب على صوت العجوز ... واختنق حلقي بالعبرات وآليت لألاحقن إيزا في الحديقة حين تغادر الدار . وتقدمت العجوز بضع خطوات نحو مقعد مدام فلوش وقالت :

ـــ هلمي ! أعطني هذه الأوراق ؟ أوتظنين أنني لم أرك وأنت تطوينها في قفازك ؟ أوتظنين أنني كفيفة البصر لا عقل لي ؟ أعطني هذه النقود .

وما أن أختطفتها حتى دنت من الشمعدان وتصنعت إحراق الأوراق على لهب الشمع ، وقالت :

ـــ اني لأوثر أن أحرقها كلها على أن أعطيها فلساً واحداً .

(أمن موجب للقول بأنها لم تفعل من ذلك شيئاً ؟)

ودست الأوراق في جيبها ، ثم عادت إلى إلقائها وتمثيلها قائلة :

ـــ أيتها البنت الجحود ! أيتها البنت الكنود ! إن السبيل الذي أودى بأسواري وعقداني لسوف تجعلين خواتمي تسلكه .

وفيما هي فيه من قول رأيتها تهز يدها وتسقط من أصابعها في حركة خفيفة ماهرة خاتمين أو ثلاثة تدحرجت على البساط فإذا بإيزابيل ترتمي عليها كما يرتمي الكلب الجائع على العظام ، واستأنفت العجوز خطابها قالت :

ـــ والآن انصرفي . فلم يبق بيننا ما يقال ، إنني منك براء ! .

وتوجهت إلى منضدة في الحجرة كانت عليها مطفأة

الشمعدان وشرعت تدور على الشموع تطفئها حتى أتت عليها جميعاً ثم انصرفت .

وبدت الحجرة الآن مظلمة ومع ذلك أبصرت إيزابيل تنهض من مقعدها وتمر ببنانها على وجنتيها ، وتلقي خصيلات شعرها المتناثر إلى خلف وتصلح من وضع قبعتها . وانتفضت بجسمها فعاد المعطف إلى كتفيها وكان قد زلق قليلاً وانحسر عنهما ، ثم أقبلت بعد ذلك على مدام فلوش تودعها . وبدا لي أن المرأة المسكينة تحاول الكلام ولكن صوتها الضعيف لم يصل إلى سمعي . ومالت إيزابيل على يد العجوز المرتجفة فقبلتها ثم انصرفت دون أن تنبس بحرف . وما هي إلا لحظة حتى كنت في الدهليز منطلقاً في إثرها .

فلما بلغت الدرج وهمت بالنزول سمعت أصواتاً أوقفتني ، وتبينت في وضوح صوت الآنسة فردور ، فملت على درابزين الدرج فرأيتها لحقت بإيزابيلا في المدخل ، وفي يدها مصباح صغير ، وسمعتها تقول :

ــ أوترحلين دون تقبيله ؟ ــ فأدركت أنها تعني كازمير ــ ألا تريدين أن تريه ؟ .

ــ لا يا لولي ، انني مستعجلة . ولا ينبغي أن يعرف أنني حضرت .

وساد سكون تخللته حركات لم أفهم معناها ، ثم خفق المصباح باعثاً على الجدار ظلالاً تتراقص وتتواثب . وتقدمت الآنسة فردور خطوة وتقهقرت إيزابيل أخرى ، وإذا بي أسمع :

ــ بلى، بلى هو لك ذكرى مني. لقد احتفظت به زمناً طويلاً ، والآن وقد تقدمت بي السن فإنني في غنى عنه .

فضمتها الآنسة بين ذراعيها ثم صاحت :

ــ يا لك من مسكينة ... إنك مبللة .

ــ إن معطفي وحده مبلل ... وليس هذا بذي خطر دعيني أرحل الآن سريعاً .

ــ خذي معك المظلة لتقيك المطر .

ــ إن المطر قد انقطع .

ــ خذي المصباح .

ــ لا حاجة إليه ، إن العربة على مقربة ، الوداع .

ــ الوداع يا بنيتي المسكينة . في حفظ ...

وضاعت بقية العبارة وفنيت في النحيب . وظلت الآنسة فردور حيناً مشرئبة بجسمها صوب الليل البهيم . وهب على حرم السلم من الخارج نفح بليل ، ثم سمعتها تدفع المزلاج في الباب الذي أوصدته ...

ولما كنت لا أستطيع المرور أمام الآنسة فردور دون أن تراني وكان جراسيان يأخذ معه مفتاح المطبخ كل مساء ، رأيت أن أمضي إلى طرف القصر فقد كان الخروج من أحد أبوابه ميسوراً ، ولكنني كنت مضطراً لذلك أن أسلك طريقاً طويلاً لن أقطعه إلا وتكون إيزابيل قد استقلت العربة . وفكرت : لو ناديتها من نافذتي ؟ فعدوت إلى حجرتي عدواً . كان القمر قد عاد إلى الاحتجاب ، فوقفت برهة أرقب الظلام وأرهف السمع لعلني أسمع خطاها ، ولكن عاصفاً من الريح هب ، وفيما أنا أبصر جراسيان يدخل من باب مطبخه ، سمعت ، خلال حفيف الأشجار وهسها عربة إيزابيل تبتعد .

— ٧ —

كانت أعمالي معطلة قد أجلت إنجازها تأجيلاً طويلاً ، لهذا ما أن عدت إلى باريس حتى انهالت علي المشاغل من كل صوب فانصرفت إليها انصرافاً شغل وقتي كله وطوّح بأفكاري . وكنت قد عقدت العزم على العودة إلى الكارفورش في الصيف التالي وذلك العزم يخفف من أسفي على إخفاقي في أن أدفع بهذه المغامرة إلى أبعد مما دفعت . وكنت قد أوشكت أن أنسى المغامرة حين ورد إلي ، في أواخر يناير من ذلك العام ، إعلام مزدوج ينعي إلى السيد فلوش وزوجه ، وقد توفيا تباعاً أحدهما بعد الآخر بقليل ، وصعدت روحهما الوديعة إلى بارئها في مدى بضعة أيام وتعرفت على خط الآنسة فردور على مظروف الإعلام ، ولكنني بعثت إلى كازمير بعبارات الأسف والود المألوفة ، فورد إلي بعد أسبوعين هذا الكتاب .

عزيزي السيد جيرار .

(لم يسمع الصبي قط أن يدعوني إلا بإسمي في العلم ، وكان قد سألني في نزهة من نزهاتنا ، في ذلك اليوم نفسه الذي ناديته فيه بإسمه ، قال :

ــ ما اسمك ؟ .

فأجبت .

ــ ولكنك تعرفه يا كازمير ، إنني أدعى السيد لاكاز .

فقال :

ــ لا أقصد لقبك ، وإنما اسمك العلم) .

لطيف منك أن تكتب إلي ؛ كان لخطابك وقع لطيف لأن الكارفورش أصبحت الآن كئيبة جداً . أصيبت جدتي يوم الخميس بنزلة ألزمتها الفراش ولم تعد تستطيع مغادرة حجرتها ، حضرت والدتي إلى الكارفورش ، وسافر الأب لأنه عين راعياً على « بروى » ، ثم توفي خالي وخالتي بعد ذلك . وأول من توفي منهما خالي الذي كان يحفظ لك في قلبه وداً عظيماً ثم لحقت به خالتي يوم الأحد بعد أن لزمت فراشها ثلاثة أيام . لم تكن والدتي قد حضرت بعد ، وكنت وحدي مع لولي ورلفيى زوج جراسيان ؛ وهي تحبني كثيراً . وكان الموقف أليماً لأن خالتي كانت لا تريد فراقي ، ولكن لا بد من ذلك ، وأنا أنام الآن في

حجرتي بجانب دلفين لأن لولي استدعاها أخ لها في «الأورن» .
وجراسيان كذلك لطيف معي ، وهو يعلمني طريقة فسل الأشجار وتلقيحها ، وأنا أجد في هذا تسلية طريفة ، وأعاونه كذلك في تحطيب الأشجار .

عليك أن تنسى الورقة الصغيرة التي كتبت فيها ذلك التعهد الذي أخذته على نفسك بالمجيء ، فإنك لن تلقى أحداً يستقبلك هنا ومع ذلك فإنه يؤسيني أشد الأسى أن أحرم رؤيتك ، لأنني أحببتك ، ولكنني لن أنساك .

صديقك الصغير

كازمير

لم تبعث وفاة السيد فلوش وزوجه في نفسي شيئاً من الحزن ، ولكن هذا الخطاب الذي كتب دون أية دراية أو تكلف وقع من قلبي أبلغ الوقع . ولما كنت في ذلك الحين مشغولاً . آليت على نفسي أن أمضي إلى الكارفورش مستقصياً متى حلت إجازة عيد الفصح . لم أكن لأحفل بأن أجد أحداً يستقبلني ، ولو ذهبت لنزلت إلى بون ليفيك واكتريت عربة تقلني إلى الكارفورش . أبي حاجة إلى القول إن فكرة لقاء إيزابيل ، لقاءها المحتمل ، كانت تدفعني إلى الكارفورش قدر ما كانت تدفعني

إليها شفقتي على الصبي ؟ وكانت بعض فقرات الخطاب قد استغلقت عليّ ، ولم أستطع أن أجد الصلة بين الحوادث التي ذكرت في الخطـاب ... أكان لا ينبغي أن أرى في مرض العجوز ، وفي حضور إيزابيل إلى الكارفورش ، وفي رحيل الأب ، ثم في وفاة الشيخين تلك الوفاة التي لم تشهدها إيزابيل ، ثم في رحيل الآنسة فردور ... أكان لا ينبغي أن أرى في هذا كله إلا سلسلة من الحوادث العرضية وقعت اتفاقاً ومصادفة بعضها في إثر بعض ... ؟ أم كان يجب أن أبحث عن صلة بينها ؟ . لو هممت السؤال عن هذه الصلة لعجز كازمير عن إفادتي ، ولأحجم الأب عن إخباري . لذا انتظرت مضطراً إلى شهر أبريل ، فلما حلت إجازتي سافرت في اليوم التالي .

وأبصرت الأب سانتال في محطة بروي يهم بأن يستقل قطاري ، فناديته ، فقال :

ـــ ها أنت ذا قد عدت إلى البلدة .

ـــ حقاً ما كنت أحسب أنني سأعود إليها قريباً .

وصعد إلى مقصورتي ولم يكن بها أحد غيرنا ، وقال :

ـــ لقد جدّت أمور بعد زيارتك ! .

ـــ نعم ، علمت أنك قد عينت راعياً لبلدة « بروي » .

دعنا من هذا ؛ — وبسط يده في حركة عرفتها في الحال — أو قد ورد إليك إعلام ؟ .

— نعم ، ولقد أرسلت عزائي إلى تلميذك ، وهو الذي أبلغني الاخبار . ولكنه لم يفض إليَّ بما يُغني ، وهممت بالكتابة إليك لسؤالك عن بعض التفاصيل .

— كان عليك أن تكتب .

— قلت ضاحكاً : لقد فكرت أنك قد تحجم عن إخباري .

ولما كان يشعر بأن لا جناح عليه من الإفضاء الآن ، على غير شأنه أيام كان في الكارفورش ، بدا عليه أنه راغب في الكلام . قال :

— صدقني ، إن ما يجري هنالك ليبعث في النفس الحرقة والحسرة ؛ وسوف يصيب مسالك القصر كلها ما أصاب بعضها .

ولم أدرك ما يعني بقوله هذا ، ولكنني لما تذكرت قول كازمير «إنني أعاونه في تحطيب الأشجار» سألته في شيء من السذاجة :

— وما سبب ذلك ؟ .

فقال :

ـــ تسألني عن السبب ؟ سل الدائنين يا سيدي العزيز . هذا ، وما يفعله القوم في الكارفورش لا يعنيهم ، بل وما يجري فيها يجري دون علمهم . إن الأرض غارقة في الديون مرتهنة ، والآنسة دي سان أوريول تستنزف ما تستطيع استنزافه .

ـــ أمي هنالك ؟ .

ـــ كأني بك لا تدري .

ـــ لقد قدرت ذلك من بعض عبارات ...

ـــ منذ أن حلت والأحوال ساءت كلها .

وأمسك لسانه لحظة ، ثم غلبت عليه حاجته إلى الكلام فانطلق يتحدث دون أن ينتظر مني أن أدعوه للحديث ، فرأيت خيراً ألاّ أوجه إليه سؤالي . قال :

ـــ كيف علمت بشلل والدتها ؟ هذا عليّ تفسيره ... لما أن علمت أن البارونة العجوز أصبحت عاجزة عن مغادرة حجرتها جاءت إليها حاملة متاعها ، فلم تجسر مدام فلوش على طردها ؛ وحينئذ رأيت أن أرتحل أنا .

ـــ من دواعي الأسف أنك تركت كازمير على هذا الوجه

ـــ ما حيلتي ؟ فلست أرى مكاناً إلى جوار مثل هذه المرأة ... لقد نسيت أنك كنت تدافع عنها ! .

ــ ولعلني أدافع عنها الآن أيضاً . إن اقتضى الأمر ذلك يا سيدي .

ــ قل ما حلا لك ، نعم ، نعم إن الآنسة فردور كانت مثلك تدافع عنها ، بل لقد دافعت عنها إلى أن رأت سادتها يقضون نحبهم .

كنت أعجب كيف طرح الأب هذه الصناعة اللفظية المتأنقة التي كان يتوخى التعبير بها أيام أن كان في الكارفورش ، وكيف تطور سريعاً فاتبع إشارة ولفظاً ، هذا الأسلوب الخاص برعاة القرى النورماندية .

وعاد يقول :

ــ لقد بدا لها ، كما بدا لنا جميعاً ، أن وفاة الشيخين معاً في وقت واحد أمر غريب ...

ــ أتظن ؟ ...

ــ لا أظن شيئاً .

ونفخ شفته العليا كدأبه ، ثم استأنف يقول :

ــ على أن الناس في البلدة أخذوا يتقولون ... يتقولون ... فإنه لا يرضيهم أن ترث الآنسة خالتها . وها انت ذا ترى أن فردور نفسها آثرت الرحيل على أن ترى ذلك .

ــ ومن يلازم كازمير اذن ؟ .

ـــ آه ! أرى أنك فهمت أخيراً أن أم الصبي ليست بالمعشر الطيب له .. حسناً ! إنه يقضي أكثر وقته مع البستاني وزوجه .

ـــ جراسيان ؟ .

ـــ أجل ، ولقد عارض في اقتلاع الأشجار من الغيضة ، ولكنه لم يفلح إن هذا لعين الشقاء .

ـــ ومع ذلك فأظن أن فلوش وزوجه لم يكونا معسرين .

ـــ لا ، ولكن أموالهما ذهبت كلها منذ البداية . والكارفورش مؤلفة من ثلاث مزارع ، يبعث إلى الفلاحين مزرعتان منها كانت تملكهما مدام فلوش ، وذلك منذ أمد طويل . أما الثالثة فما زالت ملك البارونة ، وهي من قديم لا تؤجر إلى الفلاحين بل يشرف عليها جراسيان ويعنى بغلتها ؛ ولكنها لن تلبث أن تعرض للبيع أيضاً مع ما تبقى .

ـــ هل تعرض الكارفورش للبيع ؟ .

ـــ نعم سوف تعرض الكارفورش للبيع بالمزاد العلني ولكن لن يتيسر ذلك قبل نهاية الصيف ! والآنسة تستمتع ما وسعها الآن من ذلك إلى أن يحين يوم البيع . ولكن ذلك لن يدوم ، وإذا ما اقتلع نصف الأشجار ...

ــ وكيف تجد من يشتريها منها ان كان لا حق لها في بيعها ؟ .

ــ إنك ما زلت شاباً لا خبرة لك ، متى عرضت السلعة بثمن بخس ظهر الشاري .

ــ ولكن أصغر محضر في وسعه أن يوقف البيع .

ــ إن المحضر متواطىء مع محامي الدائنين الذي نزل في القصر ــ ومال على أذني وأسر إلي ــ إعلم ، ما دام يحلو لك أن تعلم كل شيء ، ان المحامي يقتسم فراشها .

فسألته دون أن أبدي أي تأثر مما فاه به :

ــ وماذا صنعوا بكتب وأوراق السيد فلوش ؟ .

ــ سيطرح متاع القصر ومكتبته للبيع قريباً ، أو على الأصح سيوقع عليها الحجز . ولا يفطن أحد لحسن الحظ لقيمة بعض المؤلفات بالمكتبة وإلا لاختفت منذ زمن طويل .

ــ لعل لصاً خبيثاً يظهر فجأة .

ــ لا خوف من ذلك ، فإن الأختام وضعت عليها ، ولن تفض إلا حين الجرد .

ــ وما رأي البارونة في هذا كله ؟ .

ــ إنها لا تفطن لشيء ، وطعامها يقدم إليها في حجرتها ؛ بل إنها تجهل أن ابنتها تقيم في القصر .

ـــ والبارون ؟ ما خبره ؟ .

ـــ لقد توفي منذ ثلاثة أسابيع في ملجأ كنا قد سعينا إلى قبوله فيه .

كان القطار قد بلغ بنا بون ليفيك ، فحضر قس للقاء الأب سانتال فاستأذن مني مودعاً بعد أن دلني على فندق وصاحب عربة لاستئجارها .

وأقلتني العربة التي اكتريتها غداة ذلك إلى مدخل الغيضة في الكارفورش. واتفقنا مع صاحب العربة على أن يحضر ليعود لي بعد ساعتين تستريح في اثنائها الخيول في حظيرة من حظائر ضياع المزرعة .

ووجدت الباب الحديدي في الغيضة مفتوحا على مصراعيه ، أما الطريق فقد كان تالفاً ، أتلفته عربات النقل الثقيل ، وكنت أتوقع أن أشاهد أشد الخراب والتدمير ولكني رأيتني جذلان أطرب إذا وقعت عيناي فجأة عند مدخل القصر على « شجيرة الزان ذات أوراق الخوخ » ، وقد نجمت براعمها كأعين الجراد ؛ ولم أفكر حينئذ أنها تدين بحياتها إلى رداءة نوع خشبها . وفيما أنا أمضي لاحظت أن الفأس أصابت أجمل الأشجار ؛ وأردت قبل أن أتجمل في الغيضة أن أزور هذا النزل الصغير الذي اكتشفت فيه خطاب إيزابيل ، ولكنني رأيت على

بابه قفلاً منيعاً مكان مزلاجه المكسور ، (وعلمت بعدئذ أن الحطابين يستودعون هذا النزل آلاتهم وثيابهم) فسلكت طريق القصر . وكان هذا الطريق مستقيماً يحف بجانبيه عوسج لم يرتفع إلا قليلاً ولم يكن يؤدي إلى واجهة القصر بل كان ينتهي إلى ذلك الجناح الذي فيه المرافق والمطبخ وقبالته حاجز المبقلة الصغير . وبينما أنا على مقربة من البستان أبصرت فجأة جراسيان يخرج منه وفي يده سلة بها خضر ، ولم يعرفني أول ما رآني ، ولكنه خف إلي لما ناديته فعرفني وصاح :

ـــ السيد لاكاز ! حقاً ما من أحد كان ينتظر قدومك في هذه الساعة :ـــ ولبث حيناً ينظر إلي وهو يهز رأسه دون أن يحاول إخفاء ما يسببه له قدومي من انزعاج ثم أضاف في لهجة خف ما فيها من جفاء ـــ ومع ذلك سوف يفرح الصبي للقائك .

وقطعنا بضع خطوات نحو المطبخ دون أن نفوه بحرف ، فلما بلغناه أومأ إلي أن أنتظر ودخل يودع سلته ، ثم عاد وقال في لهجة رقت بعض الرقة :

ـــ وإذن فإنك جئت لترى ما يجري في الكارفورش ؟ .

ـــ ويبدو لي أن ما يجري فيها ليس بالحسن .

ونظرت إليه فرأيت ذقنه ترتعد ، وأطرق لحظة ثم قبض على

ذراعي فجأة واقتادني إلى الخضرة الممتدة أمام شرفة قاعة الإستقبال فوجدت في هذا المكان جسم شجرة من البلوط طريحة صرعى ، وتذكرت أنني كنت قد احتميت بهذه الشجرة حين فاجأني المطر في الخريف . وكان حول هذه الشجرة أكداس من أغصان الشجرة التي اجتثت منها قبل قطعها . قال :

ـــ أتدري يا سيدي بكم تقوم أمثال هذه الشجرة ؟ باثنتي عشر «بستولاً» ؛ ثم هل تدري بكم بيعت هي وأمثالها ؟ . بمائة «سو»[1] .

كنت أجهل أن القوم في تلك الأنحاء يطلقون على قطعة النقود ذات العشرة فرنكات لفظ البستول ، ولكن الساعة لم تكن ملائمة للسؤال عن ذلك . وكان جراسيان يتكلم وهو يحقد غيظاً ، فالتفت إليه فرأيته يمسح بظهر يده عبرة انحدرت أو عرقاً سال ، ثم ضم قبضته ، وصاح :

ـــ يا للأوغاد ! يا للأوغاد ! إنني أكاد أجن يا سيدي حين أسمع فؤوسهم أو حداءاتهم تعمل في الشجر . إنها تصيب من رأسي فأكاد استغيث صائحاً : اللص ! .

بل قد تتملكني أحياناً رغبة في القتل . ولقد قضيت أول أمس مستخفياً في القبو حيث كان الصوت يأتيني خفيتاً أو

(١) «السو» : جزء من عشرين من الفرنك .

كالخفيف . ولقد رأى الصبي ، في بادىء الأمر ، حين شاهد فؤوس الحطابين تعمل في الأشجار ملهاة طريفة لأنهم كانوا يدعونه ليشد الحبل معهم كلما أوشكت شجرة أن تسقط ؛ ولكن لما أن دنا أولئك الأوغاد شيئاً فشيئاً من القصر وهم يواصلون قطع الأشجار لم ير الصبي في هذا العمل طرافة . وكان يتوسل إليهم قائلاً : بالله لا تقطعوا هذه الشجرة ! لا ، لا تقتلعوها ! . وقلت له يوماً : يا بني المسكين ، لن تكون لك هذه الشجرة أو تلك ولو أمسكوا عنها ؛ وذكرت له أنه لن يمكنه البقاء في الكارفورش ، ولكنه صغير غر ، لا يدرك كيف أصبح لا يملك شيئاً . آه لو تيسر لنا البقاء في الضيعة الصغيرة لقبلت مغتبطاً أن أصطحب الصبي معي . ولكن من يدري من سوف يقتنيها ؟ وأي وغد سوف يحتل مكاننا فيها ... لست بالشيخ الهرم يا سيدي ، ومع ذلك كنت أوثر ألا يمتد بي أجلي حتى أرى ما قدر لي أن أرى .

ــ من يقيم الآن في القصر ؟ .

ــ لا أروم أن أعرف ذلك . إن الصبي يتناول طعامه معنا في المطبخ وهذا خير له ؛ أما سيدتي البارونة فإنها لا تغادر حجرتها ، وهذه نعمة من عند الله ... وتحمل إليها دلفين الطعام

متوخية المرور من سلم الخدمة متجنبة من تود اجتنابهم . أما هم فلديهم خدمهم الخاص وليس بيننا وبينهم صلة ولا كلام .

ـــ ألا ينتظر أن يقع على متاع القصر حجز ؟ .

ـــ إن حدث هذا اصطحبت سيدتي البارونة إلى الضيعة إلى أن تباع مع القصر .

وسألته ولساني يتردد ، لا يدري كيف يدعوها :

ـــ والآنسة ... ابنتها ؟ .

ـــ قال : فلتذهب حيثما حلا لها الذهاب إلا عندنا ؛ إنها سبب كل ما حدث .

وكان صوته متهدجاً يرجف من شدة الغضب ، فأدركت في هذه الآونة كيف استطاع أن يذهب إلى ارتكاب ما ارتكب صوناً لشرف سادته . وسألته :

ـــ أهي الآن في القصر ؟ .

في هذه الساعة لا بد أنها تتريض في الغيضة ـــ وانها تشاهد أولئك النفر الذين يقتلعون الأشجار . ويظهر أن ذلك لا يسوؤها ، بل هي لا تستحي من التحدث إليهم أحياناً . أما إذا أمطرت السماء فإنها لا تغادر حجرتها . ها هي ذي حجرتها ، إنها تلك التي تؤلف زاوية القصر ، وإذا أمطرت السماء وقفت

خلف زجاج النافذة ومدت بصرها إلى الحديقة لو لم يكن صاحبها في «لزيو» لما خرجت هذه الساعة آه يا سيد لاكاز يا لهم من رهط جميل ! لو أتيح لسادتي المساكين أن يعودوا للحياة ليشاهدوا ما آلت إليه الحال في ديارهم لرجعوا على الأثر من حيث أتوا .

ــ ألا ترى كازمير هنا ؟ .

ــ أظنه أيضاً في الغيضة يتريض . أتود أن أستدعيه ؟ .

ــ لا ، سوف أجده بنفسي . إلى اللقاء ، سأراك قبل رحيلي أنت ودلفين من دون شك .

كان الدمار الذي أنزله الحطابون بالأشجار يبدو أبشع ما يكون ، لا سيما أننا كنا في فصل الربيع والطبيعة تتهيأ لأن تبعث الحياة في كل شيء . وقد مال إلى الدفء ، وكنت أرى شعب الأغصان تنبض وتنتفخ ، والبراعم تنجم وتتفجّر بينما كان مبتور الغصن يبكي ماء حياته . كنت أمضي متأني الخطو مكتئباً وقد أثارت اكتئابي هذه المناظر التي كانت تفيض كآبة من حولي وشعرت بشيء أشبه بالدوار ، ناشيء بلا ريب عن أريج الأرض وهي تعمل وما يتضوع من الأشجار وهي تحتضر .

ولكن هذا التعارض بين البعث والموت كان لا يكاد يؤثر في نفسي .

وهكذا انحسرت الغيضة وأفسحت للشمس أرجاءها فغمرتها ، وخلعت عليها من تبرها خلعاً كست بها الميت والحي . ولكن صدى الفؤوس الأليم ، الذي يدوي بعيداً فيرجع الفضاء رنينه الحزين ، يصد من ابتهاج قلبي . وشعرت بأن خطاب الغرام الذي حملته معي في ترحالي وأخذت على نفسي ألاّ أنتفع به بتاتاً ، وكنت أحياناً أضمه إلى قلبي ، يضرم النار في صدري . وكنت أردد في نفسي : ما من شيء يستطيع اليوم أن يقف في سبيلي . ورأيتني أبتسم لما أن شعرت ، حين فكرت فيها ، بأني أسرع الخطو لا منقاداً بإرادتي ولكن «بقوة» في النفس كامنة تدفعني إلى الإسراع . وكنت أعجب كيف يستطيع الدمار ، على ما فيه من وحشة ، أن يجعل مناظر الطبيعة من حولي تفيض حياة ، فيضاً يزيد في إمتاعي . وأعجب كيف لم ينل من ولعي بإيزابيل افتئات الأب ، وكيف كان كل ما يبلغني عنها يزيدني شوقاً إليها دون أن أقر هذا الشوق وما الذي يربطها اليوم بهذه الأماكن الآهلة بذكريات بغيضة ؟ كنت أعرف أنه لن يؤول إليها شبر من الكارفورش المبيعة . فلِمَ لا تفرّ ؟ وخطر لي الآنَ

أتردد في اختطافها في عربتي هذا المساء . وأسرعت خطاي ، فإذا بي أكاد أجري حين أبصرتها على مقربة مني . كانت هي هي بلا مراء ، في ثياب الحداد ، حاسرة الرأس ، قد جلست على جذع شجرة طريحة تعترض الطريق . وخفق قلبي خفقاناً شديداً حين رأيتها بحيث اضطررت إلى الوقوف قليلاً ؛ ثم مضيت إليها وأنا أتأنى في خطاي كأنني متنزه هادئ البال لا مأرب له ، وسألتها :

ـــ معذرة يا سيدتي ... ألست في الكارفورش ؟ .

وأبصرت إلى جانبها سلة لأشغال الإبرة موضوعة على جذع الشجرة ، وكان بالسلة بكرات وأدوات للخياطة وقطع من نسيج الكريب بعضها ملفوف وبعضها محلول ، وكانت تتهيأ لأن تضع رقاعاً من هذه القطع على كساء للرأس مصنوع من الجوخ ، تمسك هذا الكساء بإحدى يديها .

ورأيت على الأرض شريطاً أخضر قد انتزعته بلا ريب عن كساء الرأس من أمد قصير . وكانت تتلفّع بمعطف صغير أسود يغطي كتفيها، فما رفعت رأسها أبصرت إبزيماً أو عقرباً من تلك العقارب المبتذلة التي تشد وثاق المعطف حول الجيد . وليس من شك في أنها كانت قد أبصرتني من بعيد لأنها لم تدهش حين فاجأتها بسؤالي ، وقالت :

ـــ أو قد حضرت لشراء القصر ؟ .

وما أن سمعت هذا الصوت حتى عرفته وخفق له قلبي ...

ما أجمل جبينها الحاسر ! قلت :

ـــ إنما حضرت كزائر فحسب ، لقد رأيت الأبواب مفتوحة والناس في الغيضة يتجولون . ولكن لعلني أتطفل ؟ .

ـــ كل من أراد الدخول يستطيع الآن أن يدخل ! ـــ وتنهّدتْ طويلاً ثم عادت إلى ما كانت تعمل فيه كأن الأمر قد انتهى بيننا .

ولما كنت لا أدري كيف أواصل حديثاً ، قد يكون الوحيد بيننا إذ كان لا بد أن أقطع بعده برأي ، حديثاً لم أكن أرى الوقت حان لأن أعرض له إذ كنت أحرص على ألاّ أعرض له دون بعض الحيطة ، ولما كان الفكر والقلب يفعمهما الإنتظار وتتردد فيهما أسئلة لا يجرؤ على إلقائها لساني ، وقفت آونة أدفع بطرف عصاي شذيات الخشب وأنا حائر الفؤاد مزعزع النفس أجمع في الوقت نفسه بين أشد القحة وأقل الدراية ، حتى رأيتها آخر الأمر ترفع بصرها وتحدجني ، فحسبت أنها ستغرق في الضحك ، ولكنها قالت في بساطة :

ـــ هل أنت فنان ؟ .

ليس من شك في أنها لم تسألني هذا السؤال إلا لأنني كنت في ذلك الحين أرتدي قبعة رخيصة وأترك شعري يسترسل ، هذا إلى أنه لم يكن يبدو عليَّ أن أعمالاً تستحثني .

وأجبتها مبتسماً :

ـــ لا ، للأسف . ولكني استطيع مع ذلك أن أستسيغ الشعر ...

وشعرت بعينيها ترنو إليَّ مستوضحة أمري وأنا لا أجسر أن أرفع طرفي إليها . ودار بيننا حديث ثقيل على نفسي بغيض إليها . في ابتذاله ونفاقه ، وإنني لأشعر بأمض الألم في نقله .

واصلت الحديث فقلت .

ـــ ما أجمل هذه الغيضة ! .

وبدا لي أنها لم تكن إلا راغبة في الحديث وان الذي كان يحيّرها ويحيرني إنما هو تخير السبيل إليه ، فإنها قالت على الأثر انه ليس في إمكاني أن أتصور مظهر الغيضة في الخريف ، فالربيع الآن لا يزال في بدايته يرتعد من برد الشتاء وأضافت إنني لا أدري ما قد يتبقى منها بعد إعمال القطع والتدمير التي يقوم بها الحطابون .

فصحتُ :

ـــ أليس في الإمكان رَدُّهم عن ذلك ؟ .

فرددت قولي ساخرة ، وهي ترفع كتفيها عالياً :

ـــ رَدُّهم ! .

وحسبت أنها كانت تبغي أن تريني قبعتها الغثة شاهداً على مدى بؤسها ، ولكنها لم ترفعها إلا لتضعها على رأسها ثم ألقت بها إلى خلف بحيث ظل جبينها حاسراً . وأخذت بعد ذلك ترتب قطع نسيجها كأنها تتهيأ للقيام . فملت إلى قدميها والتقطت شريطها الأخضر ثم ناولتها إياه .

فلم تتناوله وقالت :

ـــ وما أصنع به الآن وأنا على ما ترى من حداد ؟ .

وما إن نطقت بهذه العبارة حتى أفضيت إليها بما شعرت به من حزن لما علمت بوفاة السيد فلوش وزوجه ثم بوفاة والدها البارون ؛ فلما أظهرت دهشتها لمعرفتي أهلها صرّحتُ لها أني قضيت اثني عشر يوماً معهم في شهر أكتوبر من العام المنصرم .

فسألتني في جفاء :

ـــ ولِمَ ادعيت إذن من آونة أنك لا تعرف أين أنت ؟ .

ـــ ذلك أنني كنت أتلمس سبيلاً إلى الحديث معك .

ثم من غير أن أكشف لها عن طوية أمري إلا قليلاً ، أخذت أروي لها قصة الفضول الجارف الذي حملني على الإقامة

في الكارفورش يوماً بعد يوم أملاً في لقائها ، وأبنت لها عن أسفي الشديد لعودتي إلى باريس دون أن أحظى برؤيتها ، (ودون أن أذكر شيئاً عن تلك الليلة التي فاجأتها فيها مع خالتها وأمها) .

ـــ وما الذي بعث فيك هذا الشغف الشديد بمعرفتي ؟ .

وكفّت عن تكلف القيام ، فجذبتُ إلى مقربة منها حزمة كبيرة من الحطب جلستُ عليها في مواجهتها ؛ ولما كنت في وضعي هذا في منخفض بالقياس إليها كنت مضطراً إلى أن أرفع بصري إليها فشاهدتها منكبة على عملها ، منصرفة إلى لف وتكوير شرائط من نسيجها كما تفعل الصبية ، وبحثت عن عينيها ولكنها لم تعد تقع على عيني . وحدثتها عن صورتها الصغيرة وسألتها في قلق عن مآل هذا الوجه الذي ولعت به أكبر الولع ، ولكنها كانت تجهل أمره ، وقالت وهي تضحك ضحكاً جافاً وقع في قلبي أسوأ الوقع :

ـــ وما من شك في أنهم سيعثرون عليه حين ترفع الأختام ... وسوف يعرض للبيع كغيره ؛ وفي وسعك أن تقتنيه ببضعة دراهم إن كنت لا تزال راغباً فيه .

فأبديت لها أسفي على أنها لا تراني صادق الشعور جاداً فيما أدعي ؛ وقلت لها لئن كنت لم أعرب عن شعوري هذا إلا

الآن ، وفجأة ، فقد كانت من أمد طويل تشغل فكري . ولكنها ظلّتْ جامدة الوجه وكأنها قررت ألا تسمع مما سَمِعتْ . كانت الساعة تتطلب سرعة البت . ألم يكن معي ما يكسر شوكة صمتها ؟ وأحسست بخطاب الغرام الملتهب يرجـــف بين أصابعي . وكنت قد أعددت رواية ملفقة عن علاقة قديمة كانت قائمة بين أسرتي وأسرة جنفر فيل . أعددت هذه الرواية على أمل أن أذكرها في سياق الحديث فأحملها على الكلام . ولكنني شعرت في تلك اللحظة عينها بما في روايتي الكاذبة من سخف ، فصرّحت لها بأية مصادفة غريبة وقع هذا الخطاب بين يدّي ، وناولتها إياه قائلاً :

ـــ بالله يا سيدتي لا تمزقي هذا الخطاب ! ردّيه إليّ ...

وكان وجهها قد تغير واستحال لونه إلى صفرة الأموات ؛ واحتفظت بالخطاب على ركبتيها دون أن تطالعه ، ولبثت حيناً ساهمة العين لا يستقر لها طرف في حين كانت تردد :

ـــ لقد فاتني أن أسترده ! كيف فاتني أن أسترده ! .

ـــ لقد حسبت بلا ريب أنه تسلمه ، أو أنه ذهب ليتسلمه ...

وكانت لا تزال معرضة عني لا تصغي إليّ ؛ فأتيت بحركة أبغي بها أن أسترد الخطاب ، ولكنها لم تفهم ما بغيت وأوّلتْ

حركتني إلى غير ما كنت أرمي ، فدفعت يدي في جفاء وزجرتني صائحة :

ـــ إليك عني .

ثم نهضت من مكانها تبغي الفرار ، فتعلقتُ بأهدابها وجثوت أمامها على ركبتيَّ قائلاً :

لا خوف عليك مني يا سيدتي ، إنك لترين اني لا أبغي بك سوءاً .

فلما أن عادت إلى الجلوس ، أو بعبارة أصح لما ارتمت على جذع الشجرة خائرة القوى ، توسلت إليها ألا تغضب عليَّ لأن المصادفة اختارتني لأكون حافظاً لسرها من غير إرادة ، ورجوتها أن تبقي على هذه الثقة ، وأقسمت لها ألا أذيع سراً أبداً . آه لِمَ كانت لا تروم أن تعتبرني صديقاً صدوقاً مخلصاً لا يعرف عنها إلا ما خصته بمعرفته ! .

لعل ما ذرفت عيناي من سخين الدمع وأنا أناجيها كان أبلغ أثراً من مناجاتي ، وقلت :

وا أسفاه ! لقد بلغني كيف انتزعت المنون صاحبك في تلك الليلة المشؤومة ... ولكن كيف بلغك هذا الخبر الأليم ؟ وماذا كان منك حين رأيته لا يظهر ؟ فقالت في صوت مكتئب :

ـــ ما دمت مطلعاً على كل شيء فإنك لا تجهل إذن أنني لم أكن في تلك الليلة أنتظر مجيئه بعد أن أنبأت جراسيان بأمره .

وتراءت لي الحقيقة فجأة بشعة ، أبشع ما تكون حتى لم أتمالك نفسي عن الصياح .

ـــ كيف ؟ أنت التي أمرت بقتله ؟ .

وحينئذ تركت الرسالة والسلة تهويان إلى الأرض وأخذت جبينها بين يديها وأجهشت في البكاء ، فملت عليها وحاولت أن أمسك يدها ولكنها دفعتني قائلة :

ـــ لا ! إنك غليظ القلب جحود .

وأدركت أن صيحتي الطائشة أفسدت اطمئنانها إليّ وأوقفتها عن متابعة الكلام ؛ كنت لا أزال جالساً أمامها وأنا مصمم على ألا أبرح جانبها ما لم أعرف أكثر مما عرفت . فلما أن كفكفت دمعها أقنعتها بأنها أفاضت وأفصحت بحيث لا تستطيع أن تسكت عن الكلام دون ضر . ثم قلت لها إن اعترافها الصادق لن يغض من قدرها عندي وإنه ليس من شيء أشد إيلاماً على نفسي قدر تعلقها بالصمت واعتصامها بالكتمان . فاعتمدت بمرفقيها على ركبتيها وحجبت وجهها بيديها المشبوكتين وروت لي ما يلي :

كتبت هذا الخطاب في الليلة السابقة على الليلة التي تعين فيها الفرار ، كتبته خلال ما ألم بها من أرق ، ولوعة الهوى قد بلغت أقصاها . فلما أمست وأصبحت حملت هذا الخطاب إلى النزل وزجته في الموضع الخفي الذي كان يعرفه صاحبها ، وكانت تعلم أنه سيأتي بعد قليل لاستلامه . ولكنها لما عادت إلى القصر وأبعدت نفسها في تلك الحجرة التي كانت تنوي فراقها فرقة دائمة شعرت بضيق لا سبيل إلى وصفه ، فيه جزع شديد من هذه الحرية المجهولة التي طالما تاقت نفسها إليها في حرقة ووحشة ، وفيه خوف فائق من صاحبها الذي كانت مع ذلك لا تزال تصبو بجوانحها إليه ، ثم فيه إشفاق بالغ من نفسها ومما كانت مقدمة عليه . نعم كان عزمها صحيحاً ، نعم كان كل رادع مقهوراً مكبوتاً ، قد ارتضت العار وقبلت أن تجرعه حتى آخر جرعة ، ولكنها حين رأت أن لا شيء يقف بينها وبين ذلك الباب المفتوح الذي يدعوها للفرار ، شعرت فجأة بخور وضعف وكأن قلبها كف عن النبض ، وإذا بفكرة الفرار أصبحت بغيضة إليها لا تستطيع احتمالها فجرت تنبيء جراسيان بأن البارون دي جنفرفيل اعتزم ، هذه الليلة عينها ، أن يختطفها من ذويها ، وقد يلقاه في المساء طائفاً ما بين المنزل والباب الحديدي ، ولا بد من دفعه إن دنا من القصر .

فلما أبديت لها دهشتي لأنها لم تذهب بنفسها لاستحضار هذا الخطاب واستبداله بآخر كفيل بأن يجعل صاحبها يعدل عن مشروعه الجنوني ، لما أن ألححت عليها في سؤالي مستقصياً ، أخذت تتهرب من الجواب وتعتذر والدمع ينحدر من عينيها ، قائلة إنها كانت تعلم علم اليقين بأنه ليس في وسعي أن أفهمها كما أنها تعلم بأنه ليس في وسعها أن توضح خيراً مما أوضحت ؛ ولكن في ذلك الحين كانت تشعر بأنها عاجزة عن صد صاحبها عجزها عن اللحاق به ؛ ثم إن الخوف كان قد شل قواها وأقعدها فلم تعد قادرة على العودة إلى المنزل ، هذا إلى أنها كانت تخضع ، في تلك الساعة من النهار ، لرقابة أبويها الصارمة بحيث لم تلجأ إلى جراسيان إلا مكرهة راغمة ؛ وأضافت :

أكان في وسعي أن أقدر أن جراسيان سيعتبر هذا القول ، الذي أفلت مني في هذياني ، جدّاً ؟ لم يخطر ببالي إلا أنه سوف ينحيه أو يردّه ... فلما أن سمعت بعد ساعة من الزمن طلقاً نارياً يدوي جهة الباب الحديدي انتفض جسمي كله ؛ غير أنني عدلت بفكري عن هذا الاحتمال المروع الذي كانت تعافه نفسي وتأباه ؛ بل رأيتني ، مذ أخبرت جراسيان خبري ، أشعر — على نقيض ما كنت أشعر من قبل — بأن السكينة حلت

بفؤادي وفكري وبأنني بدأت أتنفس ... فلما أن جن الليل وأقبلت الساعة التي تعين فيها الفرار رأيتني دون طوعي أنتظر ، وعاد إليّ الأمل ، أمل كاذب امتزج بيأسي ليهدىء من روعي . لم يكن في استطاعتي أن أقدر أن لحظة من الخور أو ساعة من الضعف في إمكانها أن تطوح دفعة بطائل أحلامي . نعم ، بطائل أحلامي لم أكن أفقت منها بعد ، فقد رأيتني أشبه بالنائم ، أنزل إلى الحديقة فأرصد كل صوت وظل ، وأعلل النفس بالإنتظار ..

وعادت إلى نحيبها ثم قالت :

ــ لا ، لم أكن أعلل النفس بالإنتظار ، وإنما رثاء لحالي كنت أحاول أن أوهم نفسي انتظر . كنت قد جلست على أسفل درج الشرفة حيث الخضرة تمتد أمامي . وكان القلب قد جفّ حتى لم تعد به عبرة ، وجلا الفكر حتى قصر عن الإدراك ، فلم أعد أعرف من أنا ، ولا أين أجلس ، ولا ما دعاني إلى المجيء . أما القمر الذي كان من قليل يغمر العشب بضوئه فقد توارى خلف السحب ؛ وسرت في بدني كله رعشة خلتها رعشة الموت ، ففكرت : يا ليتني أموت ! وتنفس الصبح فرأيتني

طريحة الفراش معتلة الجسم ، وكشف الطبيب الذي عادني عن حملي فكاشف به والدتي .

وسكتت حيناً ثم قالت :

ـــ والآن وقد عرفت ما رغبتَ في معرفته فإنني لو مضيت في حديثي لسمعت قصة امرأة أخرى لن تعرف فيها صورة إيزابيل التي عرفتها .

والحق أني كنت بدأت لا أعرف فيها تلك المرأة التي علق بها خيالي ، فقد كانت تقطع حديثها بأنات شاكيات تارة لتلوم الأقدار وتارة لتأسف على أن الشعر والعاطفة أبداً على ضلال . ولكنني لم ألق في صوتها ذلك اللحن الصادق الذي يصدر عن حرّ القلب ، فساءني ذلك . لم يكن أسفها يقع إلا عليها وحدها ! وفكرت : أهذا كل ما تعرفه عن بذل النفس في سبيل الهوى ؟ .

والتقطتُ ما تناثر على الأرض من سلة الأشغال حين انقلبت لم أكن أشعر برغبة ما في أن أدفع سؤالي إياها إلى أبعد مما دفعت ؛ وفجأة أصبحت لا أحفل بشخصها ولا آبه بحياتها ، ووقفتُ إليها كما يقف صبي إلى لعبة حطمها ليكشف عن سرها ؛ فلم تعد تسبيني تلك الفتنة التي كانت لا تزال تزينها ، لا ولا

طرف أهدابها على لحظها الناعس غدا يهيج في أية صبابة . كان الحديث قد انتهى بنا الكلام عما وصلت إليه من عسر وضيق ، فلما سألتها عما تنوي عمله قالت :

ــ سأحتال على إعطاء دروس ، دروس في البيان والغناء . لي طريقة جيدة جداً .

ــ آه ! لو تغنين ؟ .

نعم ، أغني وأعزف على البيان . إنني تلميذة تالبرج... ولقد تدربت فيما مضى تدريباً طويلاً .. هذا وإني مولعة بالشعر أيضاً ولعاً شديداً .

فلما رأت إني لا أقول شيئاً أضافت :

ــ أنا واثقة من أنك تروي الشعر ، ألا تبغي أن تنشد لي طرفاً ؟ .

وعافت نفسي هذا الحديث الشعري المبتذل ونفرت منه نفراً أخمد كل ما بقي في قلبي من جذوة للحب ، فنهضتُ مستأذناً ، فقالت .

كيف ! أبهذه العجلة تنصرف ؟ .

وا أسفاه ! إنك لتشعرين مثلي بأنه من الخير أن أنصرف الآن . تخيّلي أني أقمت بين أهلك في الكارفورش في خريف العام

المنصرم ، وفي ذات يوم وأنا أجلس في الجو الحار غلب الكرى أجفاني فنمت ، ثم أثناء نومي ألم بأحلامي طيف علقت به والآن فقط استيقظ من أحلامي . الوداع .

وبدا في منعطف الطريق شبح صغير يعرج فقلت :
يخيل إليّ أني أرى كازمير ، لعل لقائي يسره .
انتظره فإنه قادم إلينا .
كان الصبي يتقدم وهو يخبّ وعلى كتفه مجرفة .
أتسمحين لي أن أمضي للقائه ؟ لعله يستاء إن لقيني إلى جوارك . معذرة ...

ولم أتخير السبيل لأعجل انصرافي فودعتها في أدب ثم مضيت .

لم أر إيزابيل دي سان أوريول من بعد ، ولم أعلم من أمرها شيئاً ؟ .

بلى : لما أن عدت إلى الكارفورش في الخريف التالي أخبرني جراسيان أنها هربت مع حوذي ليلة أن طرح متاع القصر للبيع وذلك بعد أن هجرها محامي الدائنين . ثم أضاف في أسلوب قاطع .

ـــ يا سيد لاكاز ، لم يكن في إمكانها أن تعيش وحدها ، لكن في استطاعتها أن تعيش بلا رجل .

وبيعت مكتبة الكارفورش في أواسط الصيف دون أن أعلم بموعد بيعها رغم ما زودت به القوم من تعليمات ، وأكبر الظن أن صاحب مكتبة مدينة «كان» الذي دعي لمراقبة البيع والإشراف عليه كان لا يحرص على دعوتي إلى المزاد ، كما كان لا يحرص على دعوة أي هاو صادق من هواة الكتب . وعلمت بعدئذ ، في دهشة وغضب ، أن التوراة الشهيرة بيعت بخمسة وسبعين فرنكا لكتبي في البلدة ثم بيعت بعد ذلك تواً إلى كتبي بثلثمائة فرنك ، ولم أعرف اسم هذا الكتبي . أما مخطوطات القرن السابع عشر فإنها لم تكن مذكورة في قائمة المبيعات ، وعرضت كأوراق قديمة لا قيمة لها .

كنت أبغي أن أحضر بيع المتاع على الأقل فقد كنت معتزماً شراء شيء منه ذكرى لآل فلوش ، ولكنني لم أبلغ في الوقت المناسب بتاريخ البيع ، ولذا لما وصلت إلى بون ليفيك كانت الضيعة والقصر قد طرحا للمزايدة وظفر بالكارفورش ، بثمن زهيد ، تاجر العقار موزر شميدت ، ثم هم بتحويل الغيضة إلى المرعى حين ابتاعها منه أحد الهواة من الأمريكيين ، ولا أدري الباعث الذي دفع هذا الهاوي الأمريكي إلى ابتياع الكارفورش فإنه من وقت أن اشتراها لم يعد إليها ، وظل القصر والغيضة على الحال

التي شاهدتماها . ولما كنت في ذلك الحين قليل المال حسبتني لن أحضر البيع إلا متفرجاً . ولكني في صباح يوم البيع رأيت كازمير ، وبينما كنت أشاهد المزاد تملكني فجأة إشفاق شديد على هذا الصبي الذي حلت به هذه النوائب فاعتزمت أن أكفل له العيش في تلك الضيعة التي كان جراسيان يصبو إلى الإقامة فيها . أكنتما تجهلان أني أملكها ؟ وإذا بي لا أكاد أنتبه إلى ما أنا فاعل ، أدفع بالمزاد وأرفعه حتى رست علي الضيعة ، لقد كان ذلك مني عملاً جنونياً ، ولكني كوفئت عنه أضعافه بما أظهره الصبي المسكين من فرح يثير الأسى حقاً ..

وذهبت إلى هذه الضيعة لقضاء إجازة عيد الفصح ثم إجازة الصيف التالي ، ونزلت عند جراسيان حيث كان كازمير يقيم . كانت السيدة دي سان أوريول لا تزال على قيد الحياة وكنا قد دبرنا أمرنا وأسكناها في أحسن حجرة في الدار ، وكانت قد تطورت بها السن إلى تلك الحال من البله التي هي أشبه ببله الأطفال . ومع ذلك فانها ما كادت تراني حتى عرفتني وتذكرت اسمي أو كادت أن تتذكره إذ قالت :

ـــ هذا يا سيدي دي لاس كازس لطيف منك ! نعم ، لطيف منك هذا ! ذلك أنها ظنت أنني ما حضرت إلى البلدة إلا

لزيارتها ، وقالت تشرح أسباب عسرها أو تفسر لنفسها أسبابه :

ـــ إنهم يقومون ببعض الإصلاحات في القصر ، وسوف يكون بعد ذلك جميلاً جداً ! .

ولما حل يوم البيع أخرجت العجوز إلى شرفة قاعة الإستقبال في مقعدها الوثير ؛ وقدم إليها المحضر على أنه معماري شهير حضر من باريس خصيصاً للإشراف على أعمال الإصلاح (وكانت تصدق دون عناء كل ما لاءم هواها) ، ثم نقلها جراسيان وكازمير ودلفين معاً إلى تلك الحجرة التي أقامت فيها ثلاثة أعوام ولم تغادرها حتى قضت نحبها .

هذا وترجع معرفتي بآل ب ... الذين تزوجت فيما بعد إبنتهم الكبرى إلى هذا الصيف الأول الذي قضته في ضيعتي . وليست ضيعة ر .. التي آليتا إلينا بعد وفاة والدي زوجتي بنائية عن الكارفورش ، وأنا أذهب إليها مرتين أو ثلاثاً في العام للحديث مع كازمير وجراسيان ، وكلاهما منصرف الآن إلى فلاحة أرضه يعني بها ، ويؤدي إليّ في حينه إيجاره الزهيد .

ولما فارقتكما من قليل لم أذهب إلا حيث يقيمان .



كان الليل قد تقدم بنا عندما انتهى جيرار من قصته ،

ومع ذلك فقد كتب جام في هذه الليلة نفسها ، قبل أن يغلب على عينيه الكرى ، تلك المرثية الرابعة التي مطلعها :

«لما سألتني أن أنعي تلك الديار التريكة المهجورة ، وعاصف الريح يضرب في جنباتها ...».

صدر عن دار
طلاس
للدراسات والترجمة والنشر

اسم الكتاب	المؤلف	المترجم	السعر[1] ليرة
رسالة الإسلام-الرسول العربي	العماد مصطفى طلاس..	....	٢٥
فارس الأطلس-عقبة بن نافع	العماد مصطفى طلاس..	....	١٠
قطر صهيون	العماد مصطفى طلاس..	....	١٦
راعي القدس-ايلاريون كبوجي ...	العماد مصطفى طلاس..	....	١٥
فارس الجزائر-الأمير عبد القادر ..	العماد مصطفى طلاس..	....	١٧
المصطفى من أحاديث المصطفى ..	العماد مصطفى طلاس..	.........(قياس كبير)	٦٠
		.........(قياس صغير)	٣٠
كذلك قال الأسد	اختارها العماد	.........(قياس كبير)	٣٠
	مصطفى طلاس	.........(قياس صغير)	١٥
حب وبطولة	سليمان العيسى	....	١٥
قصة المتنبي	أحمد الجندي...........	....	١٢
صبرا وشاتيلا (تحقيق حول مجزرة) .	أمنون كابليوك	المكتب العربي للترجمة ...	٦
روضة الورد	سعدي الشيرازي	محمد الفراتي	١٥
سعد الله الجابري	أحمد الجندي...........	....	١٥

(١) السعر يشمل كامل الأجزاء.

فراشات غجرية	نضال قبلان		٦
كيان (قصة)	كوليت الخوري		٩
البطل والتاريخ	صفوان قدسي		١٨
خريف الغضب (جزءان)	محمد حسنين هيكل		٣٠
كفاحي	آدولف هتلر	لويس الحاج	١٨
ماجدولين	الفونس كار	مصطفى لطفي المنفلوطي	١٠
رسالة من امرأة مجهولة والحب المجنون	ستيفان زفايغ	أنجيل عبود	٨
سقوط السنديان	اندريه مالرو	د . سامي الجندي	٩
عشرة أيام هزت العالم	جون ريد	فواز طرابلسي	٢٢
هكذا يتكلم القائد	نابليون بونابرت	عبد الله حيدر	٨
حبات من الرمال الذهبية	سليمان العيسى وشعراء آخرون		١٠
رواد النغم العربي	أحمد الجندي		٩
حبال من رمل	ولبر كرين ايفلاند	د . سهيل زكار	٢٥
البطالة المقنعة في الوطن العربي	سمير عبده		١٤
باقة نثر	سليمان العيسى		١٨
موجز ديوان المتنبي (شرح اليازجي)	اختصره سليمان العيسى		٢٠
طريق التبغ	ارسكين كالدويل	منير البعلبكي	١٥
تولستوي	ستيفان زفايغ	ميشيل واكيم قصي الأتاسي	١٠
حب بياتريس الجديد (شعر) (بالعربية والفرنسية)	جيرار مورغ	رواد طربيه	٨
الاستراتيجيات السوفييتية والأمريكية	هنري باريس	أحمد عبد الكريم	١٠

الكتاب	المؤلف	المترجم	السعر
الأمنية الأوروبية أو الدفاع المشترك المنفرد	أندريه بريفر ودومينيك دافيد	أحمد عبد الكريم	١٥
الطاعون	ألبير كامو	د . سهيل ادريس	١٥
السلام الضائع في اتفاقيات كامب ديفيد	محمد ابراهيم كامل وزير خارجية مصر الأسبق		٣٠
حرب البترول السرية	جاك بيرجيه وبرنار توماس	اللواء الركن صبيح السيد	١٢
تاريخ الأدب الغربي (جزءان)	مجموعة من الأساتذة		١٠٠
مختارات من الشعر الروسي		د . ماجد علاء الدين	١٨
إلى أراضل الأرق	سليمان العيسى		١١
الحرب العالمية الثالثة	الجنرال جون هاكيت	موسى الزعبي	٣٣
يسوع ابن الانسان	جبران خليل جبران		١٢
نشيد الجمر	سليمان العيسى		٢٥
من الشعر اليوناني الحديث		الياس معوض	١٠
يوميات زاير (جزءان)	ريتشارد كروسمان	العميد صبحي الجابي	٥٠
ليالي الشيطان الأخيرة (راسبوتين)	فالنتين بيكول	عبد الوهاب منور	٤٠
ديك الجن الحمصي (ديوان ودراسة)	أحمد الجندي		١٠
سلام غير مرغوب فيه	لجنة أمريكية	اللواء الركن صبيح السيد	٩
الجدل الكبير حول الاستراتيجية الذرية	ريمون آرون	اللواء الركن صبيح السيد	١٥
عودة وضاح اليمن (شعر)	د . عبد العزيز المقالح		٢٥
الحرب الأهلية العالمية	جاكلين غرابان وجان بيرنار بيناتيل	اللواء الركن صبيح السيد	١٤
المسألة السورية المزدوجة (سورية في ظل الحرب العالمية الثانية)	ميشيل كرستيان داقيه	اللواء جبرائيل بيطار	٢٢

عملية كمال عدوان	العماد مصطفى طلاس		٨
الثورة الجزائرية	العماد مصطفى طلاس		٨٠
مع سليمان العيسى	مجموعة من الكتاب		١٤
من وحي المرأة (شعر)	عمر أبو ريشة		٢٥
كيف سقينا الفولاذ	نيقولاي أوستروفسكي	غائب طعمة فرمان	٢٥
رباعيات عمر الخيام	عمر الخيام	أحمد الصافي النجفي تقديم أحمد الجندي	١٥
المسيح يُصلب من جديد	نيكولاي كازانتزاكس	شوقي جلال (جزءان)	٤٠
وجيز علم الجنس الهندي	فاتسيايانا	كاسترون فاترل	٢٠
لحن كرويتزر	ليون تولستوي	د . سامي الدروبي	١٣
أنشودة الحب الظافر (قصص)	تورجنيف	عدنان سيمي وخليل شطا	١٢
الأيام المضيئة (قصص)	كوليت الخوري		١٥
أغاني الأغاني (٣ مجلدات)	أبو الفرج الأصفهاني	اختصره يوسف عون	١٠٠
شوارد قلم في الأدب والنقد	محمد روحي فيصل		١٥
العمران في مقدمة ابن خلدون	د . سعيد محمد وعد		٤٠
حديث الهيل (شعر بدوي)	عمر الفرا		١٢
مذكرات ديغول (٤ أجزاء)			١٠٠
١ ـــ النفير	الجنرال ديغول	عبد اللطيف شرارة	
٢ ـــ الوحدة	الجنرال ديغول	عبد اللطيف شرارة	
٣ ـــ الخلاص	الجنرال ديغول	خليل هنداوي ابراهيم مرجانة	
٤ ـــ الأمل	الجنرال ديغول	د . سموحي فوق العادة	
مذبحة صبرا وشاتيلا	العماد مصطفى طلاس		٢٢
الآداب المعنوية للصلاة	الإمام آية الله الخميني	أحمد الفهري	٦٠
رسائل أبي حيان التوحيدي	د . ابراهيم كيلاني		٢٨

http://nj180degree.com

ـم الطبي الموحد	مجموعة من الأطباء الاختصاصيين	....	١٠٠
يزي ـ عربي ـ فرنسي			
ة (عن البلغارية)	جيورجي كاراسلافوف...	حسين راجي...........	٢٠
ا ليفا باغريانا (مختارات شعرية)	....	حسين راجي	١٦
ء فرنسيون معاصرون..........	سعد صائب	....	٢٠
لشعر في قصائد	مجموعة من الأساتذة	سعد صائب	٢٢
راء وكلماتهم			
ل العملي للوقاية	المركز الطبي..........	دار طلاس	٢٢
أمراض القلب..............	الجامعة بوسطن		
يلا	اندريه جيد.............	د . صبري فهمي.......	١٥
ة بالتازار كوسا	اليكساندر باراديسيس..	بسام اسطيفة..........	٢٥
ابا يوحنا الثالث والعشرون)			
ن وشروتيه	غوته...................	د . محمد عوض محمد...	١٥
تحكم بوزن الجسم..........	ريتشارد . ل . هيجل مان	دار طلاس.............	٢٢
طريق اليوغا			
ق المطرقة	هوارد فاست	سليم ابراهيم عبود	٣٠
ب والأنواع الأدبية	مجموعة من الأساتذة	طاهر حجار	٢٥
إعم (قصائد للأطفال)	مختارات من الأدب الالباني	عبد اللطيف ارناؤوط ...	١٢
صافير وقوس قزح............	- - - -	عبد اللطيف ارناؤوط ...	١٤
صص للأطفال)			
قرير الكامل للجنة كاهان	النص الكامل وإفادات .	....	١٨
صهيونية حول مذبحة	بعض الشهود		
برا وشاتيلا			
ر صيف	كوليت الخوري..........	....	٢٠
ر الصلاة أو صلاة العارفين	الإمام الخميني..........	أحمد الفهري..........	٣٠
ـنات ألفدة	....	قدم لها السيد مصطفى طلاس	١٠

يتا	فلاديمير نابوكوف	مروان الجابري	٢٠
لرل ما له وما عليه	بيرنارد ليدوريدج	اللواء الركن سميح السيد	٣٥
رس الكبير	اعداد وجمع قمر كيلاني		١٧
لاقات الدبلوماسية الأميركية	توماس آ . برايسون	دار طلاس	٣٠
يلا	الدريه جيد	د . صبري فهمي	١٥
لاقات الخطرة بين الجنسين	كودير لوي دي لاكلو	اديب مروة	٣٥
يا أنا	سهام ترجمان		٧٥
خل الدول العظمى في الشرق الأوسط	بيتر مانفولد	اديب يوسف شيش	٣٠
بن ودروتيه	غوته	د . محمد عوض محمد	١٥
موات في الليل	صلاح دهني		٢٠
سليح اليابان القسري	مارسيل بريفو	حسن صادق	١٥
سداء النضال العربي في شعرنا المعاصر	أحمد سعيد هواش		١٣
راق مسافر	الدكتور عمر موسى باشا		٢٠

تحت الطبع

- معجم الأسماء العربية .... العماد مصطفى طلاس
  الاستاذ نديم عدي
- الفن الإسلامي .... د . عفيف بهنسي
- الجامع الأموي (باللغات : .... د . عفيف بهنسي
  العربية والافرنسية والانكليزية)
- مذكرات ادغار فور .... ادغار فور .... د . حافظ الجمالي
- عنب المائدة .... مجموعة من الباحثين الحمصيين . دار طلاس
- امرؤ القيس .... قمر كيلاني
  (عاشق وبطل درامي)
- الف وخمس مية .... ميمون حمصي
  من الأمثال الشعبية
- ١٠٠ قصة بهيجة للأطفال.... اصدار .... سليمان العيسى
  (في أربعة أجزاء) دار (هملين) البريطانية بهيج بلدين
- كذلك قال الأسد............ .... قدم له العماد
  (طبعة ثالثة مزيدة ومعدلة) مصطفى طلاس
- حكاية الأميرة جنان .... خالد محي الدين البرادعي
- لا شيء خلف الفولاذ .... جاكلين سوزان......... عبد الكريم ناصيف
  (رواية)
- النباتات العسلية............... .... ترجمة دار طلاس
- دراسات حول النظرية الديمقراطية رينيه دو لاسارير........ د . حافظ الجمالي
- فن التصوير .... جون هيجكو.......... العماد مصطفى طلاس

ـــ تلخيص المتشابه في الرسم	أحمد علي ثابت	تحقيق سكينة الشهابي
وحماية ما أشكل منه عن بوادر التصحيف والوهم	(أبو بكر الخطيب البغدادي)	
ـــ الدليل العملي لتنمية الغذاء الملكي	آلان كاياس............	دار طلاس
ـــ العسل غذاء وعافية	جان لوك داريغول.......	دار طلاس
ـــ الوجبات الغذائية المتدنية السريعة .	ميشيل باندبا...........	مهند الفيرة
ـــ التربية الحديثة للأغنام	د . بوهمير دوليكليز	دار طلاس
ـــ الأصابع الصغيرة .... تنمو في الظلام	نزار مؤيد العظم	
ـــ مناهج التعليم البوليتكنيكي	حسين عمر حمادة	